موت رحيم

نبيل الملحم

رواية

أطلس . بيروت

نبيل الملحم

موت رحيم
Game Over

رواية

موت رحيم ــ رواية
نبيل الملحم

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: منيف عجاج
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الثالثة ـ 2013
ISBN "Paper version": 978-9953-583-07-5
ISBN "Digital version": 978-1-78192-392-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
أطلس للنشر والإنتاج الثقافـي ش.م.م
شارع الحمرا ــ بناء رسامني
ص.ب: 113/6435 بيروت، لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني: atlasbooks@gmail.com

التوزيع:
الفرات للنشر والتوزيع
شارع الحمرا ــ بناء رسامني
ص.ب: 113/6435 بيروت، لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني: daramwaj@inco.com.lb

جميع الحقوق الرقمية محفوظة - قرطبة المحدودة - 2012 ©
يخضع استخدام هذه النسخة الرقمية من العمل لاتفاقية شروط الاستخدام من قرطبة للنشر الرقمي وقرطبة المحدودة.

شكراً... وصلت قبعة رحيم!

كان عليك أن تحدث ثقوباً في المنطاد... كي تحدث ثقوباً في الذاكرة!

– 1 –

لا تقل لي: يا أرنبة!

عودة الجد رحيم من العاصمة إلى وادي الرف، أعقاب انتفاضات الشباب التي هزّت راحة سلطة بدت الأطول عمراً في تاريخ البلاد، أغرقت الجد في دوامة من ماضٍ بدا أكثر قِدَماً من توقعاته، بل بدا أكثر قِدَماً من التاريخ المكتوب الذي سجّله الجد على شكل ملاحظاتٍ غالباً ما انمحت كلماتها من على الورق الأصفر، وقد ازداد اصفراره شحوباً حتى طغى عليه كلحٌ بدا مثله قديماً، وبدت معه خربشات الجد، وكأنها تُعلن قلقاً عميقاً من لحظة ربما اختلسها من شقوق حياته ونوافذها السرية، بحيث اختلطت الألوان الكالحة مع ذاكرة هي أيضاً كالحة، غير أنها شديدة السطوة.

ــ ارم الكرة يا جدي!

قال رَحيم الحلبي لحفيده، ثم وقف مباعداً قدميه استعداداً لتلقي الكرة، وقد شدّ عزيمته استعداداً لالتقاطها معلناً أنه قادر على تثبيت ساقين يرتجفان بفعل تقادمهما، كما بفعل التبول اللاإرادي الذي انتقل ببطء وحذر من لياليه في فراشه الوحيد إلى نهاراته المضجرة، نهارات هاله أن يمضيها تحت ظلال شجرة توت معمّرة هي الأخرى، شجرة ثمارها تستجيب لعشرات الرغبات في تنويعات التوت، الأبيض والأحمر والأسود، بعد أن طعّمتها أجيال أعقبت أجيالاً، بما جعل من هذه التوتة ملكاً مشاعاً لمجموع سكان وادي الرّف، وهم من سلالات فلّاحية أكثر تمجيداً للملكية الخاصة، وأكثر دفاعاً عنها، ومنهم الرجال الشيوعيون الذين عاشوا المرحلة السوفييتية، وأغرقوا جوزيف ستالين بتبجيل مضاعف عن رفاقه من الشيوعيين الروس، بل وحتى من الجورجيين الذين انزلق هذا الديكتاتور الفريد من حفرة في سيدة منهم.

كان الشيوعيون أكثر تقديساً للقوة، عما كان عليه حالهم أمام مُثل الديمقراطية العليا، وكانوا يعملون جاهدين على استنساخ ستالين سوري، ولكن بات من الصعب عليهم الوصول إلى نسختهم الحصرية، بعد أن تحوّل أكثر رجالهم سطوة إلى مجرد فناء معشب يقبع وراء بوابات البعث الحاكم، وقد ارتخى في شيخوخته وعجزه. وما زاد من فشلهم في تكرار محاولة الاستنساخ هذه، حلولُ ماستهم، الأمين العام للحزب الشيوعي، مكان زوجها ما بعد وفاته لتجلس على المقعد نفسه وهي تقرأ بياناتها، بصوت أجش يمنحها شيئاً من إيهامات الصحة الجسدية.

بدت الكرة، وهي تندفع بركلة من قدم الحفيد، بدت ومضة برق تتجه نحو الجد المتأهب.. لم يكن بوسع رحيم سوى أن يواجه الصاعقة ممسكاً إرادته من أذنها، ليصبح على نحو آلي: لاعب كرة.

ــ لقد التقطتها!

صرخ رحيم مسقطاً عن عينيه نظارته المعتمة، وبعد ذلك فرقع ضحكات تنمّ عن انتصار مؤجل هو الأحوج إليه، انتصار وصل إليه بعد ثمانين عاماً.. أعوام طالما حلم فيها أن يصبح بيليه، نجم الكرة ذو القدم الذهبية.. أعوام فَقَد خلالها زوجته الأولى بعد أن عبث بها سرطان الرحم، وهجرته زوجته الثانية بعد أن اشتد بها اليقين من علاقاته النسائية الفاجرة، وكان رحيم يمضغ النساء كما يلتهم النمس زغاليل الحمام في أعشاشها، وفي زواجه الثالث من كارميلا جدة سيف، وقد جاء في عمر متأخر، أصابته كآبة كان يخرج منها بالتهام كميات مبالغ بها من اللحم المشوي وأمعاء الخواريف المحشوة بالأرز كما بالحلويات، وقضم لفافات التبغ حتى تجاوز وزنه المئة وستين كيلو غرام من جسد يترنج تحت وطأة ما يحمل، وهو يتجول بين فنزويليين أضعفهم الجوع وأضاعتهم الخمرة، حتى باتوا يفضّلون ترك آثار دماء أقدامهم وهم يتجولون حفاة في أكثر بلدان الأرض ادخاراً للثروة، يتحملون ويتكيفون ويبقون على قيد الحياة.

ــ ما الذي جاء بك؟ لم أكن أتوقع مجيئك؟ سألته كارامیلا فور وصوله إلى وادي الرف وهو ما زال يزرّر بنطاله معلناً عن ما كان عذباً وفخماً، وبات ذليلاً في أيامه الراهنة.
ــ لِمَ لَمْ تجيئوا أنتم إليّ؟ أجابها رحيم.
ــ إلى أين؟ إلى بيت مهجور وبلاط مكسّر وجارات يشفقن عليّ؟
ــ كان بوسعنا ترميم بيتنا.
ــ وترميم أفواه الجارات ونظراتهن؟ أجابته كارامیلا، وتطلعت إلى السفوح البعيدة، إلى سفح جبل الشيخ وقالت: انظر.. هل ستجد في شقتك ثلوجاً مكوّمة فوق جبل كما هو الحال هنا وفي بدايات الصيف؟!
بدت كارامیلا وكأنها تتدفق احتجاجاً على سكنه في دمشق العاصمة وقد هجرها، وكانت وهي تتابع التحديق في أصابعه وهو يزرّر بنطاله، كانت متيقنة من أنه شلف واحدة من الفلاحات اللواتي يواعدهن في المساء، ثم لا يلبث أن يخلع عنهن سراويلهن وهن يتمددن في المقعد الخلفي لسيارته، وكانت متيقنة من خصال زوجها ودناءة غرائزه.
ليس بوسع رحيم أن يعيش في بيت واحد بباب واحد ونافذة واحدة، ولا أن يختار خياراً واحداً..
كان رحيم أكثر تطلباً للخيارات المتعددة، وكان يشبّه نفسه بـ «الخلد»، الحيوان الأرضي الذي يحفر بيتاً تحت الأرض تاركاً عدداً لا يحصى من المنافذ التي تقود إليه ومنه.
ــ البيت الواحد سجن! أكّد لها في أكثر من مناسبة، وكاد أن يفرقع ضحكته حين تابع: البيت الواحد يتحوّل إلى أختي.. آجلاً أم عاجلاً يتحول إلى شيء من مشتقات المُحرّم، وحدها الفنادق تأخذ شكل العشيقة! وحين كتم ضحكته، استرسل في القول: كي لا أغرق فيك.
قال لها مثبتاً نظرات ذئب فوق عيني أرنبته، ثم دسّ أصابعه في صدرها.
كارامیلا، زوجة رحيم الثالثة، امرأة ربما رضعت من ثدي أرنبة، فهي إضافة إلى هدوئها الغائر تحت فستان غالباً ما كان ضعف مقاسها، استمرت مجرد امرأة متدربة على الجنس رغم مرور ثلاثين عاماً على زواجها، وقد أنجبت خلال سنوات تدربها تلك، ابنهما الوحيد سامي، الذي أنجب بدوره حفيده سيف، لاعب الكرة وعازف الجيتار الكهربائي.
انشقت شفتا كارامیلا على ابتسامة ماكرة، فثمة يقين لدى المرأة الأرنبة، أن زوجها العجوز ما زال يحتفظ بهيكل عظمي هو الأقرب معمارياً إلى التماثيل الأولمبية الوثنية، بعد أن فقد نصف وزنه، وكل ما يلزم المرأة (أي امرأة) لاشتهاء زوجها، هو أن تنسى أن تقول له: يا زوجي!
كان يتوجب عليها أن تكون عاهرته ليشتهيها... هو من أعلمها في ليلة خمر، أن الرجل يشتهي أمرين: طبق البيت وجنس السوق.
بدت كارامیلا وهي تتأمل زوجها وتتمتم بشتائمها المعتادة، وهي تتلفظها باللغة الإسبانية، التي تعلّمتها من نشأتها الأولى في فنزويلا، بدت كما لو أنها تشبّه رحيم بالسعدان.
ــ نعم السعدان!
لم تكن كارامیلا لترفع صوتها في لحظات غضبها، ولكنها كانت على دراية بالحقيقة العلمية الصرفة التي تقول بأن الافتراق التاريخي ما بين الإنسان والسعدان، حدث منذ مليارات السنين، هذا الافتراق التاريخي، لم يكن سوى صَلف جيني صرف... صَلف أحدث انشقاقاً هائلاً في الجينات اللاحقة، ما أنتج إنساناً وسعداناً، افترقا حتى بلغ تطورهما اللاحق ما بلغ، وكان رحيم واحداً من الذاهبين في طريق التطور الآدمي الذي أودى به إلى فراش كارامیلا، ليقيّدها بأنفاسه اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، وبعد ذلك، لا شك في أنه سيمضي إلى امرأة أخرى من الواقفات على أبواب كاباريه كاريزما القريب من سكنهما في كاراكاس، حيث النساء شبه العاريات، وقد ضاعفت إنارة الشارع من لهيب أجسادهن ليقول لواحدة منهن:
ــ آنجيلا.. ألا تريدين ضرباً سريعاً؟

كل النساء بالنسبة إليه كنّ آنجيلا، ولم يكن الوقت ولا مرة يكفيه للتحقق من اسم البنت التي تتمدد فوق مخمل سيارته الخلفي، وقد بات مقعد سيارته مِكبًّا لنفايات النساء ومناديلهن الورقية التي تتكوم كما لو أنها تحتل قماش المقعد، لتنبعث من المكان روائح وخّازة، لنساء يتركن عطورهن الرخيصة فوق كلاسين طالما احتفظ بها رحيم، ذكرى مسدَّدة الثمن، ما يضاعف من تكاليف ليالي النساء التي يعود بعدها إلى كاراميلا، مؤكداً أنها واحدة من أطباق طاولته، بما جعلها تكف عن الضرب على الطاولة خوفاً من أن تتكسر، بعد أن كرّر على مسامعها حكمة تقول: «من الصعب أن تضرب بقبضتك على الطاولة بعد أن تصبح واحداً من أطباقها»، وكانت كاراميلا طبقه المفضل حين لا يكون فوق طاولته أي آنجيلا أخرى، وكانت تستطيب زلات لسانه ومخاطبته لها باسم آنجيلا.

حكى لها حكاية الطبق، حين تقدّم باستقالته من العمل سفيراً لبلاده، سفيراً طالما اشتهى أن لا يكون وفيّاً للقسم الذي يقيّده بالإخلاص للقيادة وحكمتها، وطالما تأجّج غيظه من ذاك القسم وقد مرّر أصابعه فوق الكتاب المُنزّل، وهو من يعترف بأنه لم يسبق أن تعرّف على أيّ من آياته أو سوره المكية أو المدينية، هذا إضافة إلى أنه ما زال حتى هذا العمر يُخطئ في تلاوة الفاتحة، ولا يُميّز على وجه الدقة ماهية الفارق ما بين الخمّارة والمسجد.

ــ شيطان يرتدي قبعة من قش! قالت كاراميلا لنفسها حال أن أطلّ وهو يتمايل أمامها راقصاً.

وحين دقق فيها، اكتشف ردفيها، وبعد أن أعاد استكشافها، وجدها قنبلة، ودندن لها أغنية عابثة، لتدير ظهرها له مغادرة بردفين استعاد على إيقاعهما اهتزازات ردفي آنجيلا ميراندا، أكثر النساء رسوخاً في ذاكرته، تلك المرأة التي استهلكها مثل علبة كبريت: عود يشتعل، يعقبه بإيقاد عود لاحق.

غير أن تأملاته انطفأت من جديد، فحين عاد لتأملها متذكّرا أنها زوجته، تراءى له أنها تتثاءب، وأنها في طريقها إلى قيلولة المساء، أو قيلولة الصباح، أو قيلولة الظهيرة، وأحياناً قيلولة منتصف الليل بحيث بدا الزمن بالنسبة إلى كاراميلا وكأنه قيلولة تعقب قيلولة تعقب قيلولة، وعلى هذا النحو أنفقت عمرها بما جعلها السيدة النائمة، وبما جعله يراقب مناماتها التي تنتهي بصحوة مفاجئة تتمتم فيها بالإسبانية، ثم تدعك عينيها ناهضة لتبسمل بعدها وتحوقل، ثم تعود إلى النوم مجدداً، ليستلقي إلى جانبها متأذياً ووحيداً.

كانت تبسمل وتحوقل، ليس بدافع الإيمان، كانت تفعل ذلك لمجرد الاحتجاج مدفونة بهاجس طرد الموت من بوابة بيتها، وكانت كلما بسملت وحوقلت تزداد امتلاءً بأنها تهشّ الموت عن رحيم وقد بات في عمر يخطو نحو نهايته، كانت كاراميلا تثابر على إبعاد الموت عن زوجها هامسة، وإن كانت راغبة في الصراخ بوجه الموت... الموت الذي سيدعها وحيدة بعد أن يفارقها حظها العاثر: رحيم.

كاراميلا أحدثت جلجلة مفاجئة في رأس رحيم، جلجلة بدت وكأنها اشتقاق من فوهة بركان خمد منذ الأزل ثم صحا.

ــ قل يا رحيم.. كم كذبة كذبت عليّ طيلة حياتي الملعونة معك؟!

سألت كاراميلا، وبدت وكأنها مزّقت فراء الأرنبة الذي تنكرت به طيلة عمرها. قالت ذلك ثم أردفت:

ــ لا تقل لي: يا أرنبتي، ثانية! إنني كلبة يا رجل!

ليس ثمة رجل حقيقي واحد، بمستطاعه أن يعبر عمره دون أن يكذب على امرأة واحدة، واحدة على الأقل، ثم ليس بوسع رحيم سوى أن يتنفس كذباً، وحين حاول أن يكون واحداً من الناجين، لفّ ذراعيه حول صدره ليقول لها: أنت المرأة الوحيدة في حياتي.

حين قال ذلك، خاطبها باسم آنجيلا.

ــ آنجيلا؟ أجابته متسائلة، وعقّبت: السيدة شيطان؟ شيطانك؟

استوعبت كاراميلا الموقف كما عادتها، فقد كان كذبه شيئاً مألوفاً ومسلّما به، تماماً كما مرض الحصبة ودوران الكرة الأرضية، وكلما اعتقدت أنه قادم إليها، ثمة حركة ما، إيماءة ما، تقول لها إنه مغادر، بما

جعل وصوله إليها ومغادرته لها، عملية من الصعب الإحاطة بحقيقتها، كان رحيم بالنسبة إليها أشبه بقطار، وصوله ومغادرته لا تعني الإقامة في المحطة أبداً.

ــ قل لي يا رحيم!

ــ سأقول.. كل ما عليك فعله هو أن تسألي.

كانت كرة القدم تدور بين كفيه كما كتلة نار ملتهبة، وكان مزمعاً على إفهام حفيده أنه يستطيع اللعب بكرة القدم في هذا العمر المتأخر كما لو كان الله، هذا إذا كان لدى الله وقت للنزول إلى ملاعب الكرة وهزّ شباكها، قال ذلك لحفيده متباهياً، وأكد أن الكرة حين تقفز في الهواء فلا بدّ أن تعود إلى قدمه ممتنّة ومطيعة.

استرساله في أحلام كرة القدم، وحديثه المُسهب عن أبطال ستينيات القرن العشرين من مثل بيليه وغارنتشيا، جعل كارااميلا تتباطأ في طرح سؤالها، ومن ثم في ابتلاع سؤالها ثم مضغه، وفي حقيقة الأمر فإن كارااميلا لم تكن جادة في سؤال لا بدَّ وأنها تعرف إجابته، سؤال مفاده:

ــ رحيم.. هل ما زلت ترمي بذور البطيخ وقشره على جارتك العجوز أم ديمتري؟!

بسبب قشور البطيخ وبذوره، أقام رحيم علاقة مع العجوز أم ديمتري، أبرز سكان الشارع المبلط الموصل إلى باب شرقي، علاقة هي الاحتياطي الضروري لجفاف العلاقات مع الصبايا الصغيرات اللواتي يقفن في شارع بغداد، ذاكرة تقود حتماً إلى امرأة كل ما فيها مضى: ردفاها وقد انمسحا بفعل الزمن، عيناها وقد انطفأ بريقهما، وثدياها وقد باتا يفرزان مسحوق الحليب المجفف.. وما لا شك فيه أنه لطالما حوّل علاقته مع أم ديمتري إلى احتفال مع العجوز المقوّسة الساقين تتحول بين ذراعيه إلى طائر مبتهج، ما جعله يعتقد أنه كلما أقدم على مواعدتها وكأنما يواعدها على إقامة حفلة.. حفلة من مفرداتها أن يفصفص لها بذور البطيخ المشوية، ثم يمضغ البذور ليعيدها إلى فم العجوز مصغياً إلى طقطقات طقم أسنانها وقد تحوّل بفعل الزمن إلى اللون المُخضر الأصفر.

ــ الكلب!

همست كارااميلا، ثم أضافت بصوت أعلى: إنه لا يشبع... لو حمّلت على ظهره ألف امرأة لما أنزل واحدة عن ظهره.

العشبة السيئة لا تموت أبداً

الأزمنة السورية بدءاً من منتصف 2011 أوشكت أن تتبدل، وما لم يستبعده أي من سكان البلاد، هو أن حياته باتت وكأنما هي رقصة على حواف المقبرة.
المصادر الحكومية أعلنت أن الغوغاء يجهّزون لفوضى عارمة في الأرياف والعاصمة، وحشدت بالتوازي مع تصريحاتها الآلاف من متطوعي القتل، وبطبيعة الحال طافت المصادر الحكومية ومخبروها في ممرات الإذاعة والتلفزيون الرسمي بين محرري نشرات الأخبار المملوكين للحكومة كما كل شيء في البلاد مملوك لها.
شخصيات حكومية بارزة فجّرت طبولها وأبواقها وهي تصف مؤامرات الخارج التي ستأخذ البلاد من سكينتها، أحزاب متحالفة تخوّفت من أن تساق الجمهورية باتجاه ضجيج ليس بوسعها احتمال نتائجه، ومع تحشيدها أطلقت أجهزة الاستخبارات ناطقين مدهونين ومزينين بألف إجابة عن الدوافع التي تعيق السكان عن مغادرة شيخوختهم نحو العصيان المدني.
الحكومة وأجهزتها ومتطوعوها ثابروا على إطفاء الشموع التي
توقدها بنات مُحتجّات في ساحة باب توما، ثم على سوق المعارضين إلى أقبية الاستخبارات المترامية، وكانت أجهزة الدولة بمجموعها قد جهّزت الطلقات الأولى من البنادق لقتل أيّ ممن سيندفعون إلى إعلان التظاهرات الأولى، ولا بدَّ أن رحيم، كان الأكثر خوفاً من أن يُقتل.
بات يراقب وميض عظامه بينما تتواصل حياته وتتحرك أقدامه شاقاً طريقه في إعصار من الرصاص بعد مصادفة قادته إلى تظاهرة في منطقة القدم، أقدم أحياء العاصمة السورية، أثبتت له أن الله كان بالغ الجدية حين وعده بحياة أبدية، متكئاً في قناعته تلك على حقيقة علمية مفادها أن العشبة السيئة لا تموت أبداً، وشكر الله الذي منحه صفة العشبة الخالدة.
ــ أي شيء سوى الموت.
قال ذلك بعد أن تحقق من أنه مات ليوم كامل، ثم نهض من فوق الرصيف مصحِّحا هندامه، معيداً قبعته إلى جمجمته، مثبِّتا كتفيه فوق جذعه، عاقداً العزم على أن لا يعود ثانية إلى الغرق في التضرع والتوسلات المستعجلة إلى الله ومسيحه المنتظر، وهو من كان يعلم علم اليقين بأن ثمة مؤشرات قيامة تلوح في الأفق، كانت تنبأت بها قديسة إنجيلية فنزويلانية تدعى ميري لا أوما، وفي تنبؤاتها قالت بأن الدماء السورية ستصل حتى شكائم الخيول.. كان ذلك قبل ثلاثة عقود أو يزيد، وكانت ميري تدحرج بين كفيها حجرين بيضويين، مؤكدة لرحيم أن ممارسة الحب خارج الحياة الزوجية، وتعميم هذه الممارسة كظاهرة، ستدنّس هذا الكون، وستكون واحدة من علامات القيامة، إضافة إلى علامات أخرى. أوحت القديسة بأنها تتصل بمصير الزعيم الليبي معمر القذافي، وكان رحيم وهو يصغي إلى تنبؤات قديسته، يغوص في خياله بعيداً، سابحاً في بحيرة صغيرة تدعى بحيرة أوبيكو، ثم ما لبث أن عرّى القديسة من ثيابها ليقول لها:
ــ فكري جيداً يا أختاه.. فكري جيداً.. سيكون من الصعب عليك انتظار ظهور السيد المسيح ثلاثين سنة لتمارسي الحب على الواقف!
بعدها أقنع القديسة بأن تتحلل من ثيابها، وترتكب معه معصية صغيرة في قلب مياه البحيرة.. نعم، قادها إلى المعصية ومارس معها الحب في يوم الجمعة الحزينة، وكانت ترتجف من المتعة حين تهدهد مياه البحيرة جسدها الذي أحكمت ربطه لسنوات طويلة، قبل الظهور المدمر لرحيم، لتكرر القديسة القول لكاهنها وهي تعترف باكية، مادة عنقها من كوّته:

ـ كان على سيدنا يسوع أن يضيف إلى الخطايا العشر، خطيئة أن تصافح امرأة رحيم الحلبي.

***

ـ لم تقم القيامة يا جدي، كل ما يجري في هذه اللحظة، أن البشرية سئمت من نفسها، وذهبت إلى حتفها، إن هذا ما يحصل في ليبيا، وقبلها في تونس، وما يجري في سوريا اليوم، لا يتجاوز كونه فعلا مضاداً للضجر يقودنا إلى القيامة، نعم، إنه الفعل الأكثر إمتاعاً من مؤانسة سادة ركبوا على ظهورنا نصف قرن واسترخت إلياتهم فوقنا..
قال رحيم لحفيده متابعاً: الموت وحده إهانة للكائن البشري.. ليس ثمة ما يهيننا كما الموت.. لا تمت ولا تدعني أموت.
وكرّر ثانية:
ـ أنت تعرف أنني لن أموت يا جدي.. هذا ما أنا عازم عليه.. الله وعدني بذلك، وكما تعلم ليس الله من يخلف وعداً.
ـ لماذا لن تموت؟ تساءلت كارامیلا بعد أن التقطت همسات زوجها، ثم بلعت احتجاجها متمتمة: لن يموت؟! والله سيأتي اليوم الذي تجده فيه جثة ملقاة فوق ظهر عاهرة!
حين وقف حفيدها سيف مصغياً إلى بركان جدته، احتضنته بيدين معروقتين وقلب ينشج، قالت له:
ـ كل حياته خيانات يا سيف.. كلها.. كلها.. كان ينام معي وأصابعه تلاعب سيقان نساء الكاريبي بكامله.. واليوم وبعد أن تقوّس ظهره.. كل نساء العاصمة وثلاثة أرباع القرى يا سيف، وكنت أعرف، وكان لا يعرف أنني أعرف، الكلب يكبّر رأسه بقبعته.
قالت كارامیلا ذلك ثم داعبت بطنها براحة يدها ممسدة بطنها الأملس برؤوس أصابعها:
ـ نعم كان بوسعي أن أكون أرنبة، وأن أنجب في كل بطن ثمانية خرانيق أو تسعة، غير أن أرنبي لم يكن ليستأهل مني أن أنجب، ولهذا اكتفيت بوالدك.. والدك كلب ابن كلب مثل جدك.. نعم.. الكلب يخلّف كلباً.. وأنت؟ هل ستكون مثلهما.. كلباً ابن كلب ابن كلب يا سيف؟
بكت كارامیلا وغمرت سيف براحتيها وصدرها وكامل قلبها، وما إن جفّفت دموعها حتى أخذت تنشد أغنية هي خليط من دمع ولعاب يتطاير فوق خدي سيف، وكانت تكرر:
ـ مع كل ذلك أحبه.. هذا القحب الكلب الشرموط العجوز أحبه!
لأول مرة في حياتهما معاً، يسمع رحيم شتيمة من فم كارامیلا، فم كان يشبّهه بحبة اللوز مغازلاً، ثم يشكو من صغره وضآلة شفتيه وافتقاده للّعاب الذي غالباً ما تذرفه المرأة في لحظات حميمة استكمالاً لذروة الجسد.. لأول مرة تُطلق كارامیلا شتيمة، ولأول مرة يتراءى له بأنها امرأة.
ـ يا إلهي، أنت امرأة!
خبط رحيم الأرض بقدمه خبطات ثلاث وتوقف، وبعدها رفع قامته على أصابع قدميه وأطلق ذراعيه في الهواء وبدأ يرقص.
بدت ساقاه أكثر متانة مما كانتا عليه أيام شبابه وقد غادره الشباب منذ عقود مضت، بدا صنوبرة شائخة احتفظت بمتانة جذعها، وبعد التفاتة رسم خلالها حزمة دوائر تضيق وتضيق حتى باتت كارامیلا نقطة مركزها، قال رحيم:
ـ كارامیلا أنت امرأة!
ـ وكنتُ امرأة.. على الدوام كنتُ امرأة!
أجابته كارامیلا، ونفضت ذراعيه عن ذراعيها ممسكةً بيد سيف، وانطلقت كما سهم نحو بيتها مغادرةً ساحة التوتة، جرّدته من شهية إعطاء الأوامر تاركةً الرجل العجوز يستغرق في خيالات ماضيه المبتذل،

وهو ماض ربما أخذت كلاسين النساء منه، أكثر مما يحتمل عمر لكائن واحد يتوزع ما بين متطلبات السياسة، وقطاع الأعمال، والانكسارات التي غالباً ما أطاحت بكل ما بناه حتى باتت حياته سلسلة من إشادة بناء يعقبه تدمير بناء، بما جعله يقف على حافة الصفر، أو في قلب الصفر دون أن ينحدر إلى ما دونه، وكان أن انحدر مرة واحدة، حين غامر باحتكار كميات كبيرة من بيض الدجاج، آملاً أن يكون رهانه على ارتفاع أسعار علف الدواجن، سبباً لارتفاع أثمان البيض بعد احتكاره، وبما يجعله ثرياً من فارق الأسعار المفترض، وهي الحسبة التي أودت بكل ما يملك، فأسعار الأعلاف هبطت، والدجاج كان الكائن الأكثر عناداً في مقاومة العقم من بقية الأنواع الطبيعية، الثديّة منها والزاحفة، وقد بدا ذلك من شحنات البيض التي تخرج من المداجن وسط أصوات الدجاج الماجن، وقد حطت الدجاجات مكائدها فوق كاهل رحيم، فيما أخذت صناديق بيضه بالتلف بيضة وراء بيضة، وصندوقاً وراء صندوق، وكان يمعن في ركلها بحذائه المدبب، حتى أغرق أرضية مستودعه ببياض البيض وصفاره غارقاً تحت وطأة الديون والإفلاس هذه المرّة.

ــ سخّني لي الحمّام يا امرأة.

قال لكاراميلا، ثم خلع حذاءه ورماه فوق الكنبة، انتشرت رائحة البيض في أركان منزله المؤثث بأفضل أنواع الأثاث المنزلي: خشب محفور بأيدٍ ماهرة، سجاجيد جدارية من الحرير الفارسي موقعة بأسماء صانعيها، كريستال تشيكي مزنّر بالورود الغائرة وراء شفافية الزجاج وهو يبرق ضوءاً، أرائك مصنوعة لرجل يحرص على الاتكاء محيطاً جسده بكل متطلبات الاسترخاء والرفاهية.

أخذت كاراميلا طريقها إلى الحمّام مذعنة لأوامر ديكها.. كان رحيم قد رآها دجاجة هذه المرة مبدَّدا تصوراته بأنها أرنبة، وكان عازماً على نتف ريشها، فما إن أقفل باب الحمّام عليهما حتى دلق الماء فوق قميصها المورّد وهو يصرخ: كرمى لله، ابصقي في وجهي!

ــ ولماذا؟ معاذ الله.. ما الذي فعلته حتى أفعل ما تطلبه مني؟

ــ لقد انكسرت هذه المرّة وأفلست وغرقت وأغرقتك معي.

ــ لماذا تقول هذا يا رجل؟

ــ خمخم البيض كله وتلف.. حصيلة سنة من بيض دجاج البلاد غرق في المزبلة.

ــ فداك عمري يا رجل!

ــ أوه.. أقول لك غرقت وأغرقتك معي، وتقولين فداك عمري؟!

ــ فلينقطع الدجاج وسلالته قبل أن تشكّك شوكة.

ــ يا الله كم أنت جحشة!! أنا لا أتأسف على الدجاج.. إنني متأسف على الديون التي راكمتها فوق رأسك ورأسي.. لم يعد أمامنا سوى بيع أثاث منزلنا وربما منزلنا نفسه.

ــ فداك يا رجل، المهم أن تغتسل وتزيل رائحة الدجاج عن جسدك.

رائحتي مثل رائحة الكلب، قال لنفسه، ولم يكن بطبيعته يقوى على فضيلة الاتساخ على هذا النحو، وكانت رائحة البيض تحيله إلى ما يشبه حاوية مهجورة، وحين لاحظ الكراهية المتبادلة بينه وبين رائحته، دلف إلى الحمّام، دون أن تتنبه كاراميلا حتى إلى شعرة من ذيله، الى أن سمعت صوت ارتطام حفّز خوفها.

في صمت الحمّام كان ينبض.. شعرت كاراميلا بكثافة دمه وهو ملقىً فوق بلاط الحمّام بما أوحى لها بأنه ميت، غير أنها تذكرت حين حرّك إبهام قدمه أنه ما زال حيًّا، وأنه لا بدَّ أن أغوى واحدة من نساء الملائكة لتنقذه من ارتطام رأسه ببلاط الأرضية، لتتركه الملاك الأنثى ممدداً وسط روائح البيض ورائحة الدم وقد طفح بقطران التبغ الذي ضاعف من كثافة دمه.

ــ سلامتك!

قالت، غير أنه ما إن فتح عينيه وقد أفاق من غيبوبته حتى قال لها: الكلاسين الوطنية جريمة!

لم تفهم كارامیلا موقفه هذا من الكلاسین الوطنیة، وحین نهض أوضح لها قائلا إنه ما إن یشفى من جراحه ویستعید شیئاً من رأسماله الضائع في أقنّة الدجاج، حتى یعید إلیها أنوثتها بعد أن یغمرها بالكلاسین المستوردة التي تتصدر واجهات المحال الفرنسیة المترفة.
قال لها إن الكلاسین الوطنیة تغري العقبان بالانقضاض علیها وإفراغ ما بداخلها، ظناً من العقبان الغبیة أن ما في داخل الكلاسین هذه لا یعدو أن یكون جثثاً.

– 3 –

مصادفة سعيدة؟ نعم!

اعتاد رحيم أن يقول: وداعاً، وبعدها يبحث عن طريق خلاص جديد ليقول مجدداً: وداعاً.
كلما طال الطريق بدا بالنسبة إليه أكثر تطلّبا لقرارات من نوع: «الحياة أو الموت»، وكان يرى أن ليس ثمة طريق لا يوصل في نهايته إلى العبودية، سوى الطريق الذي يفارقه بعد الخطوات الأولى التي يشقها فيه، ولم يكن مرغماً على تبرير أيٍّ من فلسفته هذه لأيٍّ كان من البشر المحيطين به، والذين يعتقد بأن لقاءه بهم لا يزيد عن كونه لقاء مصادفة.
نعم كل لقاء سيكون مجرد مصادفة، حتى لقاءه الصباحي بزوجته في سريرهما المشترك.. هو هكذا، زادت في إمعانه بهذه القناعة تلك الضرورات الصباحية التي تجعله يستيقظ ليرى زوجته الطيبة كاراميلا وقد فتحت عينيها لتقول له: صباح الخير!
ــ مصادفة سعيدة يا كاراميلا!
لم تكن كاراميلا قادرةً على ترجمة «مصادفة» هذه، فقد اضطجعت بالأمس إلى جانبه معطّرة ببخار الصابون الذي طالما أحبه رحيم، ثم غفت تُهدهده وهو يذهب في أحلامه بعيداً.. إلى خيال نساء يشاركنها زوجها اللعوب، وفوق ذلك حطت جسدها في فراشها على موعد حُدّد منذ الصباح المبكر، بعد أن تواعدا على لقاء يباشران فيه التخلص من كوابيس تحط فوق منامات رحيم وتتسبب له بالكثير من الإعياء، بما يجعله منهكاً طوال نهاراته وهو يعبّ من لفافات تبغه ويلقي بها مع بصاقه فوق أرضية غرفة المعيشة، أو على الأرصفة التي يتجول فيها كل صباح.
ــ مصادفة سعيدة؟ نعم!
ردّدت كاراميلا قولها هذا، مغالبةً مشاعر الزوجة القلقة التي لا تعرف كم سيطول بها عقد زواجها، وكانت مستعدة على الدوام للملمة أشيائها والرحيل حاملة طفلها، لتكون الأم العزباء المسؤولة عن رعاية طفلها والإنفاق عليه، وهي تعرف باليقين أن عائلتها المقيمة في كاراكاس أشد فجاجة من احتوائها وطفلها، ففيما كان والدها واحداً من جامعي الثروة، كان حريصاً أيضاً على عدم تبديد ثروته أو إنفاق هذه الثروة، وكانت حكايا بخله تجاور السِيَر الشخصية لمجموعات مهاجرين يحملون سلال البضائع متجولين ما بين أزقة ضيقة، وطوابق مسكونة بنساء ينتظرن باعة متجولين، بات رحيم واحداً منهم حين صار في الخمسين من عمره، في رحلة بدت يومها ضرباً من الحماقة لرجل غادر دمشق إلى الكاريبي، لا احتياجاً إلى المال بقدر ما هو تأكيد على ضرورة تغيير طريقه وقد ملّ من عمله في وزارة الخارجية قنصلاً، ثم ملحقاً، وبعدها سفيراً يبتسم حين لا يرغب في أن يبتسم.
كانت تلك مبرراته المُعلَنة، غير أن ما حدث في الحقيقة كان غير ذلك، فما حدث فعلاً أنه تحوّل في أوساط وزارة الخارجية، وفي أروقة الدبلوماسيين إلى رجل مكلّل بالشائعات، وكانت الشائعة الأبرز التي طالت سمعته، أنه قدّم كلباً ألزاسياً ضخماً، وليمة مشوية لوفد أمني رفيع المستوى، وصل إلى هواء السفارة المكيّف، معتقداً أن هؤلاء السادة الضيوف لا يميزون ما بين لحم الكلب المشوي ولحم الخاروف المذبوح على الطريقة الإسلامية.. كانت هذه واحدة من الشائعات التي طالته، وهتكت سمعته، ولا شك في أنها ستتحول إلى ملفه الضخم في وزارة الخارجية، وهو ملف يحمل، إضافة إلى هذه الواقعة/ الشائعة، وقائع أخرى، من بينها قصص مسرّبة عن علاقاته الحميمة مع تلك العجوز البدينة الشكسة التي عُيّنت موظفة تحت إدارته، وكانت أماً لشخصية كبيرة ونافذة في الدولة، ولا بدَّ أن العجوز المشاكسة قد أسرّت لابنها بأن السيد السفير اكتفى بقرص ردفيها وشحمها، ثم لم تعد تجد له أثراً فوق سريرها.

***

سأل رحيم: أهذه الصبية ابنتك؟
أجابه عرفان رافع: ابنتي كاراميلا.
ــ ما زالت فلّة صغيرة!
ــ تقصد طفلة؟
ــ لا.. أقصد فلة صغيرة.
ارتبك عرفان من الغزل الصريح الذي أبداه رحيم، الخمسيني، تجاه الطفلة كاراميلا، غير أنه ابتلع اللحظة متقبلاً ذلك التجاوز لأسباب ربما سنعرفها من كمية الألبسة النسائية التحتية التي اشتراها رحيم من مخزن عرفان: حاملات أثداء، سراويل مختلفة الأحجام، وأثواب من الدانتيلا الشفّافة التي تُعرّي نساء يتغطين بها، وبدأت مهنة رحيم بائع ملابس نسائية تحتية حين جعله عرفان صهراً له.
سأل عرفان: لماذا كل هذه الكميات سيد رحيم؟ هل ستباشر في افتتاح متجر؟
ضحكات رحيم الدامعة وصلت الغرف الداخلية لمنزل عرفان، وهي ضحكات أقلقت عرفان رافع الذي كان حريصاً على ترشيد عواطفه وانفعالاته بالجودة نفسها التي كانٍ حريصاً بها على ترشيد ثروته..
قال له رحيم: لا.. لن أفتتح متجراً.. سأبيع هذه البضائع متجولاً.
ــ سعادة السفير يبيع؟ متجولاً؟ تساءل عرفان، بسلّة فوق كتفه؟ قال لنفسه.
لم يفهم عرفان هدف رحيم ولا حقيقة دوافعه، كان بوسعه أن يموّل تجار «السلّة» المتجولين ببضائع محدودة على أساس الدفع اللاحق، وكان الوافدون الجدد إلى كاراكاس، ينفقون أيامهم متجولين بين بيوت المدينة صاعدين هابطين وهم يحملون سلالهم، ليعودوا ببيع شحيح يسدّدون ريعه إلى عرفان وكانت أرباحه تتضاعف بفعل الربا الذي اتخذه قاعدة في تعاملاته التجارية.. بائعون يتجولون حاملين سلالهم مصحوبين بالخوف من قطاع طرق، مولعين بالخمور الرخيصة التي يقتلون من أجلها وينهبون سلال عرب فنزويلا، ومعظمهم (والمقصود هنا قطاع الطرق) لم يكونوا في واقع حالهم سوى بشر مبللين بالمطر، هاربين من العمل في حقول قصب السكر، يرقصون بأجنحة ملتهبة رافعين سكاكينهم للأعلى.
ــ سيد رحيم أنت ستشتري بضاعة بنصف مليون بوليفر، أليس كبيراً هذا المبلغ؟
ــ سأدفع «كاش»!
ــ حسناً، ولكن أين ستخزّنها؟
ــ في مخازنك سيد عرفان!
ــ ولكن...
ــ وسأدفع لك أجور التخزين!
ازدادت حيرة عرفان، ولكن هذا النوع المتجدد من الحيرة، لا يُبدّد صفقة على هذا النحو من الدفع «الكاش»، كما لم يُبدَّد سؤال عرفان الذي كتمه في صدره: كل هذه الكلاسين ستُحمل في سلة واحدة؟!

***

تباً! قال رحيم، وتابع صعود الدرج الخشبي المتهتك وفوق ظهره سلّة الملابس النسائية التحتية.. كان ذلك في اليوم التالي لشراء الكميات الهائلة من البضائع التي ابتاعها من مخازن عرفان رافع، وحين قرع أول الأبواب، قابلته بنت خلاسيّة، بدت وكأنها قد نهضت تواً من نومها.
ــ بوناسيرا.. قال لها، ثم أفرد بضاعته أمامها.
لم تُبدِ البنت أي اهتمام ببضائع رحيم، وكان كمن يبعث برسائل قدسية إلى صباحاتها، متأملاً عينيها

وكأنما يقرأ فيهما نبضات قلب الزمن، قال لها بالعربية، أن ليس من اللائق بالبشرية أن تدخل حروباً أو تُهدّد بالحروب إذا ما صادفت كل هذا الجمال الباذخ.
بنّا محروقاً كان لونها، ولكن ملامحها كانت أشد تطابقاً مع نجمة ذاك الزمان إليزابيث تايلور.. أخبرها بذلك، وبعناد بغل أفرد كل بضاعته تحت قدميها.
كان هذا البائع المتجول يمتلك نقوداً أكثر من دولة، ويرتدي صدرية بسلسال ذهبي ذي نجمة بالغة الضخامة، مرصعة بأحجار كريمة زرقاء، تُخفي جزءاً من شعر صدره الكثيف، وكانت آنجيلا تخفي تحت تنورتها الطائرة ماسةً أراد رحيم تغليفها بكلسون أرجواني يداري به لحمها العاري عن أعين العابثين.
كرّر على مسامعها محتويات سلته: سراويل تحتية من كل الألوان والمقاسات، حاملات أثداء، منامات حريرية، وكان يصغي إلى صمت بيتها وقد بدا خالياً من سواها.
ــ اسمي رحيم! ما اسمك أنت؟ وأعاد رسم اسمه بالإشارة.

***

طيلة أسابيع لاحقة، صعد رحيم درج شقتها حاملاً سلاله فوق كتفيه، لم تُبد البنت أيّ تذمر من زيارته اليومية إليها والوقوف أمام بابها فارداً بضاعته.. كان من الطيّب جداً أن يفعل هذا بائع صحف أو بائع حليب أو خبز، ولكن ليس من اللائق ولا العقلاني أن يفعل ذلك بائع كلاسين نسائية، ولا بدَّ أن رحيم يعرف هذه الحقيقة، ما دفعه إلى التساؤل عن السبب الذي يدفع هذه البنت لفتح بابها وكأنها باتت على موعد صباحي دائم معه، إلى أن جاء صباح كانت فيه بكامل هندامها، بدا جسدها الممشوق أشبه بالخيول البريّة الهائجة.
حين دقق في جسدها وردفيها المتأرجحين، بدا له أن جسدها مالحٌ، كما أيقن بأن عصير السكّر ترك أثره على لون جلدها، هكذا اكتشف رغبته العميقة في أن يمصّها، وحين عاد إليها ثانية مواعداً، كان وقت الغسق، أكثر الأوقات ألماً بالنسبة إلى رحيم حيث قطاع الطرق يجوبون الشوارع ثم يضربون بركبة فوق الخصيتين أو يغرسون سكيناً في البطن.
لم يكن ثمة مقدّمة واحدة توحي إليه بأنها ستشبك ذراعها بذراعه في رحلة انتهت ليلاً إلى واحد من بارات تقدّم الجعة والتاكيلا ورقصات السامبا، كان الراقصون ينغمسون بتعرقاتهم، وكانت الروائح الواخزة للبشرات السود، تبعث رحيم على نشوة لم يعتدها من الأجساد البيضاء المتعرقة التي ثابر على تجريبها.
كان يسجّل كلمات أغنية لا يعرف معانيها وما زالت حتى اللحظة تتلبس ذاكرته: أيها الفتيان ارقصوا أكثر لتعيشوا أكثر.. أيها الفتيان هذه الكرة لنا.. إنها الأرض التي تدور بنا.
هي الكلمات التي فتحت نافذته على كاراميلا، وحين كرّر كلمات الأغنية طالباً من كاراميلا أن تترجمها له، ذهبت كاراميلا إلى ترجمة كل كلمة على انفراد محاولة خلق سياق للجملة الكاملة كي تصل بكامل معناها، وحين انتهت من الترجمة طلب منها:
ــ هل تذهبين معي إلى البار لمقابلة «آنجيلا»؟
ــ من هي آنجيلا؟
ــ هي البنت التي راقصتني.
ــ وماذا سأفعل إذا ما ذهبت معك؟
ــ تترجمين لي.. عندي كلام كثير سأقوله لهذه البنت.
ــ إذا وافق أبي أذهب.
ــ ولم لا يوافق؟

ــ لا يسمح لي بالخروج من البيت إلا برفقة العائلة.
ــ حسناً.. ليس أمامي سوى أن أتزوجك!
ثم أمسك بيد كاراميلا وكان تعلّم قراءة الكف البوذي.
ــ ستكونين زوجة رائعة.
ــ وآنجيلا؟
ــ يا الله كم هي مثيرة وشهية.. مغوية وضحية!
كرر قول: « آنجيلا آنجيلا آنجيلا» مرات عديدة، وعاد إلى استحضار حلبة رقص تومض بالأضواء، ولكن آنجيلا عرفت أنها ستحقق إيرادات ضخمة من مرافقتها لرحيم، وربما (وهذا ما يجهله رحيم)، كانت بحدسها الغريزي عرفت أنه مجرد رجل عابر يحمل الكثير من الألبسة الداخلية، بمقاييس مختلفة لأرداف مختلفة الحجوم، تمثّل بالنسبة إليه مجرد هدف عابر أيضاً:
ــ خذي سروالاً بالمجّان ودعيني أتفرج على أردافك!
لم يتوانَ رحيم عن إعلان طلبه هذا مع نساء كثيرات كان يتجول بين بيوتهن صاعداً سلالم أبنية متشققة الجدران، حيث الاستجابات النسائية المتفاوتة، والتي على الغالب تذهب نحو إصابة أهدافه وهو يدقق النظر في أجساد تخلع سراويلها القديمة لتقيس سراويله التي تندلق من سلّته في بذخ وكرم شديدين، غير أن لآنجيلا حضوراً آخر.. مُشتهى، وحميمياً وحزيناً، وحين أتم زواجه من كاراميلا، لم يكن ليخطر على باله قط أن البنت الأرنبية التي غدت زوجته والتي تصغره بما يقارب العقود الثلاثة.. لم يكن يخطر على باله أن بوسع رأسها الصغير أن يتسع لذاكرة، خصوصاً إذا كانت ذاكرة فيها شيء من الوجع، ما استدعاه لمرافقتها، لأكثر من مرة، إلى جلساته مع آنجيلا، لتقوم بترجمة مواجعه إلى اللغة الإسبانية الدارجة على نحو غالباً ما يحوّل اللغة الرومانسية إلى لغة كوميدية، تجعل آنجيلا تنقلب على قفاها من الضحك.
ذكاء رحيم وغرائزه الوقادة لم تسعفه في التقاط خبث الترجمة.. كانت كاراميلا قادرة على أن تترجم نصين معاً، دون أن تتغير ملامحها، بما يشي أنها تخدعهما في الترجمة، نصين من مثل:
رحيم: حين أراك يخفق قلبي خفقات قاتلة.
كاراميلا: يقول لك أن لديه تسرًّعا في القلب.
آنجيلا: قولي له أن يخفف ما أمكن من التدخين.
كاراميلا: تقول لك أنه من الوارد أن يقوم الإنسان بزراعة قلب.. لقد تطورت الطبابة كثيراً.
جلسات طويلة وليال طويلة مضت بهذا الثلاثي على هذا النحو، كانت كاراميلا خلالها حريصة على أن تبقى البنت الأرنبية، ولكن «الأرنبة المترجمة» سحبت من حوار آنجيلا ــ رحيم، حميمية اللغة، ما جعل رحيم يخبو تجاه آنجيلا، وجعلها تفقد حماسة الاكتشاف التي قابلته بها في لقاءاتهما الأولى، وقادت رحيم إلى أن ينهي طريقه معها حاملاً غصّة قاتلة رافقته طويلاً حين يحاول استحضار ردفي البنت وقد حلم بضمهما إلى قلبه.
حين عاد إلى دمشق تاركاً «كلاسينه» النسائية على أقفية نساء كثيرات وفي مخازن حميه عرفان رافع، كانت كاراميلا إلى جانبه سـعيدة بـانتصارها على آنجيلا الخلاسية، آنجيلا البنت الكوبـيـة القادمة إلى فنزويلا ما بعد اضطرابات كبرى أصابت عائلتها، فصلت رأس والدها الذي عاش أزمة الثورة الكوبية، وكان من أقرب المقربين إلى فيديل كاسترو، كما كان مترجمه الخاص عن اللغة الروسية في أزمة خليج الخنازير.
قالت كاراميلا لرحيم: طيب، بوسعنا أن نجلب آنجيلا معنا إلى الشام، وبوسعك أن تنشئ معملاً لصناعة السيجار.. سيجار يضاهي الكوهيبا.. آنجيلا تعرف كيف يلف السيجار.
يومذاك، أمسك رحيم رأس كاراميلا بقبضته ضاغطاً رأسـها الصغير، كانت كلماتها قد سببت دهشة

كبيرة للرجل الخمسيني الذي ظن أن هذه الطفلة ما زالت بلا عقل، غير أن هذا الكشف لم يغيّر كثيراً من سلوك رحيم تجاهها، وهو سلوك جعله قادراً على العودة إلى منزله فجراً تاركاً أزرار سرواله بلا تزرير، وتاركاً خياله مع آنجيلا، متأرجحاً داخل حفنة من الظنون التي تقول إن كاراميلا حالت دون وصول رسائله إلى معشوقته الخلاسية، رسائله التي كان يحكيها وسط شموع متأرجحة تحجب ملامح الأرنبة كاراميلا.

ــ يعني كنت تستجحشينني؟ قال لكاراميلا.

كان على كاراميلا أن تخفي ابتسامتها الشامتة، وتعود إلى معضلة مجزرة البيض التي أودت بالاحتياطي النقدي لرحيم، وكان قد مضى على حكاية «آنجيلا» ما يزيد على ثلاثة عقود، انتقل فيها رحيم من مجازفة إلى مجازفة، غير أن رائحة البيض النتن ما زالت تحط على ثيابه في هذه اللحظة، رائحة مزيج من عفن وخيبة، وكان عليه أن يغتسل مئات المرات ليبدّد رائحة البيض المتعفن عنه.

ــ ابصقي عليّ يا امرأة، بالله ابصقي عليّ!

التوت كاراميلا نحو مرآة غرفة الاستحمام وكررت في قرارتها: استمر في الكلام لكنني لن أصغي إليك، ستموت في غيظك، لن أبصق عليك أبداً. ثم دندنت وهي تدلق الماء فوق رأسه وعينيه الممتلئتين بالصابون.. دندنت أغنية لمطربة برازيلية متوفاة، أغنية تحمل عنوان: فتاة في العاصفة.

ــ ما هذا؟ سأل رحيم، وأكمل: هل هي لحظة توافق في المشاعر؟ يا ألله كم تخطر هذه الأغنية على بالي!! أسمع صداها يتردد في روحي.

كان على كاراميلا في هذه اللحظة أن توثّق إيمانها بأن رحيم ما زال «كذّابا»، وأنها ملاك تمسك بيده في محاولة يائسة لإنقاذه من جحيم القيامة التي تنبّأت بها القديسة ميري، يوم بللها رحيم بمياه البحيرة خالعة ثوب كهنوتها، غير أن الأنباء التي تحملها محطات التلفزة، جرّدت كاراميلا من صفاء روحها: القتلى بدؤوا يتساقطون على هوامش العاصمة، ولا بدَّ أن رائحة الدم تستثير القيامة كما تستثار أسماك القرش من الدم.

ليس هذا ماتمتمت به كاراميلا.. إن هذا ما سيحصل وما ستثبته الأيام القادمة على العاصمة السورية.

كانفا ما؟

بعد ثلاثة أسابيع من اغتساله من نتن البيض العفن، توقفت عربة نقل أمام باب بنائه لتنقل أثاث عمره إلى عائلة مُحدَثَة النعمة، إلى فيلا واحد ممن صنعوا ثروتهم بنفوذهم وبالمال الفاسد، واحد من سادة البلاد المتربحين من طاعون السُلطة، واحد من السادة الذين لم يتخلوا عن يقظتهم في عالم باتت الملكية والوضاعة فيه توءمين، سيد مداجنه تملأ أفواه سكان العاصمة بالبيض ثمار الدجاج الحزين، وكان على رحيم أن يسدّد ديون البيض التالف من بيع أثاث منزله.
إحدى مقتنيات رحيم التي وضعت بعبث ودون رفق تحت أكوام الأثاث، لوحة مرسومة بألوان زيتية تجمع بشراً جائعين فاقدي الاتجاه يمشون وراء رجل يحمل جسده كما صخرة، لوحة طالما أثارت خيالات رحيم، وجعلته يحلّق في أفلاك أخرى. ومن بين المقتنيات التي غرقت تحت الأثاث المصادر أيضاً، لوحة مشغولة بخيوط الكانفا هي لوحة صياد الأوز البري، تلك اللوحة التي تعلن الفحولة من ثنايا خيوط لا بدَّ وأنها حيكت بأصابع امرأة.
ــ ترفّق بهذه اللوحة يا سيدي!
مشيراً إلى اللوحة الزيتية، قال رحيم لصاحب النفوذ والمدجنة، راجياً أن ينقل هذه اللوحة بشيء من الحرص والحيطة.
ــ يوه.. لوحة!! وكأنك تعطيني لوحة سيارة مرسيدس.. طز بمن رسمها.. خذها لا أريدها!
لم يكن رحيم مشغولاً بأن يحتفظ بأي شيء لنفسه، كان يزدري الأشياء والنقود، ويحصّن نفسه في مواجهة مصائد الجشع، كل ما كان يشغله النساء، النساء فقط، تلك الكائنات اللواتي طالما وقّع اسمه فوق أردافهن: سانشو..
هكذا كان قد اختار لنفسه اسماً آخر.. اسمٌ خُيّل إليه أنه سيكون أكثر رشاقةً حين يُرسم بأحمر الشفاه فوق أرداف المرأة، كان يتعمد قلب حرف ال- s)) ليصبح أفقياً، بما يجعله المعادل البصري لردفي المرأة، غير أنه انفجر بكاءً في وحدته، حين تذكّر توقيع: «سانشو ماتشو» على لوحته الزيتية التي ثُقبت نتيجة عبث عمال العتالة وهم يلقونها تحت أثاثه المنزلي المُصادر إلى شاحنة تالفة من هول ما استخدمت.
سانشو ماتشو، الرسام الأرجنتيني الذي تلقى أوامر من نفسه تأمره بإطلاق النار على نفسه، تاركاً رسالة تقول: «الوطن الوحيد الذي يستحق أن يُعاش هو المقبرة».
تسللت أصابع بنت الكانفا التي صنعت اللوحة الثانية، إلى فم صاحب أكبر مزارع دجاج في العاصمة وريفها، وكان رحيم اختار من أصابعها الإصبع الوسطى ليدحشها في فم الرجل المتعجرف.. قال له:
ــ طز بكل أهلك، وبالنفوذ الذي منحك إياه شراميط البلد.
ثم:
ــ وحق الله، إن التذوّق الفني لأية دجاجة أعلى من تذوقك.
لم يبت رحيم تلك الليلة على بلاط منزله كحال كاراميلا، بات في واحد من أحلك أقبية العاصمة عتمة، وكان سجّانه يكرر موبخاً:
ــ كانفا ما؟ لولا شفقة سيدي لعملت من جلدك دربكة!! سأعطيك اليوم درساً نسميه فركة الأذن.. فركة أذن كي لا تكرر إهانة أسيادك.
هكذا درج المحققون الأمنيون على حماية مصاهراتهم، مصاهرات المال والسلطة، الضباع والذئاب الشرسة، وبلغة ربما باتت تفتقد إلى الكثير من التجديد بعد أربعة عقود من الحُكم، كان المحققون

يكرّرون مع الموقوفين كلمات باتت محفوظة، كلمات من مثل: سأجعل العاصمة تسمع نباحك، أو: سأجعلك تلعق مؤخرة أمك.
كانت ملامح الفجر قد بدأت تدب في العاصمة، وكانت بنات ملهى الـ crazy hours يخرجن قوافل من الملهى الليلي.. سيقان مشعّة، وفساتين شفّافة تفقدهن الحشمة التي تتنافس العاصمة الإسلامية على استعادتها، خصوصاً ما بعد أفول نجوم الماركسية اللينينية وصعود نجم الإسلاميين.
فور خروجه من الزنزانة، وقف رحيم أمام باب الملهى وقد استبدت به الوحدة، وكحاله في الأيام السالفة، تقدّم بخطوات رصينة من «لوبا» وكانت تتطلع إليه بصفته: الآغا.
لم تصادف «لوبا» رجلاً على هذا النحو من الانكسار، انكسار جعلها تمهّد لمنازلته بالدمع..
ــ من سيبكي أكثر؟!
كان يعلم أن من مآثر الدموع أنها تمارس إزالة عميقة للفحش من الآدمي المُدنّس. كانت «لوبا» نسخة متكررة عن «آنجيلا»، بفارق أن الأولى خلاسية والثانية شقراء، وكلتاهما منسوختان عن إليزابيث تايلور، نجمته العظيمة التي كرّر حضور واحد من أفلامها تسع مرّات، وفي كل مرة كان يستكشف جديداً يقوده إلى العزوف عن النساء لساعات، ثم لا يلبث أن يعود إلى باب الجابية حيث أقدم مباغي العاصمة والنساء المُنهَكات، كان ذلك قبل ما يزيد على ستة عقود، لم تكن «لوبا» قد ولدت بعد، أيّام لن تسعفه ذاكرته على استحضار تواريخها على وجه الدقة، غير أنه يعرف بالتأكيد أنها تعود إلى المرحلة الأكثر خيالاً في تاريخ بلاده، مرحلة الوحدة السورية ــ المصرية، حين افتتن السوريون بالبشرة السمراء لرئيس دولة الوحدة جمال عبد الناصر، وحملوا صوره مبتسماً إلى كل ملتقياتهم، وبضمنها الكرخانات المتوزعة في المدن الرئيسية للبلاد ومن بينها كرخانات العاصمة، لتثبت الصورة فوق صدر جدار أكثر غرف الكرخانة ترفاً.. غرفة خدّوج تكلا، وقد زاوج اسمها ما بين ديانتين تعايشتا في سوريا، المسيحية والإسلامية، وبدت خدّوج تكلا رسالة للتسامح الديني وقد استلقت تحت ضوء أحمر، فاتحة مغاليقها على آخرها، وكأنما تهدف من ذلك إلى دفع زبونها ليغوص في بواباتها أكثر فأكثر.
ــ يووه، كان ذلك قبل ولادتك! قال للوبا بعد أن قرصها، ثم أكد لها عزمه: سأمضي بحبك حتى الفجر، يا لوبا!
ــ لا.. رحيم.. شرطة الآداب تدقّق في حركتنا كثيراً هذه الأيام.
واعدته لوبا على اللقاء بعد ظهيرة اليوم التالي، كان يوماً مخصصاً لأعياد العمال حيث: «اليد المنتجة هي اليد العليا في دولة البعث»، وكان سائق التاكسي المخصص لنقلها، متواطئاً مع رجال شرطة الآداب، وهو أحد الضالعين بتضليل السلطة. قال لها سائق التاكسي:
ــ لوبا.. ولا يهمك.. دعيه يبيت عندك حتى الفجر!
رائحة الويسكي المغشوش مع خلائط من عطر رجّالي عالقة فوق جسدها، عزّزت في رحيم فكرة المضي قدماً نحو هدفه، على سلالم الفندق المقابل لمحكمة الأمن القومي، صعدا، وكان رجا، السائق الأكثر شهرة في المرابع الليلية يحمل حقيبة لوبا، وكانت لوبا تتمايل تاركة ردفين مثيرين يقفزان فوق الدرج اللولبي، فيما بنات الفندق يفترشن درجات السلم وهن يتقيأن ليلاً رجولياً أثخنته أصابع الرجال التي تقروص مؤخراتهن وتطلق أرذل الألفاظ فوق مساحات أجسادهن النضرة البضة.
الآن لا أحد يستطيع إيقافه عن البكاء، قال لها: سأبكي يا لوبا!
وتابع:
ــ جئت إليك لأبكي فقط.. اغتالني الدجاج وفتك بما تبقى من عمري.. إنه الدجاج يا لوبا.. الدجاج وحده صائدي، وأنا صائد كل نساء هذه الكرة الأرضية.. دجاجة واحدة بوسعها احتلال قارّة من الرجال الذين يحملون اسمي.. رحيم؟ لا أعرف سبباً واحداً يدعو رجلاً كوالدي لاختيار هذا المزاج من الأسماء.
لم تفهم لوبا ما يقوله رحيم، غير أنها فهمت أن الرجل ينعطف نحو لحظة قد تقرر ما تبقى من عمره،

ومع أن لغتها العربية كانت ضعيفة ومحصورة بمفردات من نوع: «حبيبي» و«بحبك»، و«مش مهم» و«عكروت» و«عرصة» و«شرموتة» و«رفيق» و«منحبّك»، غير أنها كانت تعرف بدقة متناهية معنى كلمة دجاج، كما كانت تميز أنثى الدجاج من ذكرها على النحو التالي:
دجاجة يعني أنثى.. دجاج يعني ذكر، أما مفردة بيضة فقد جهلتها تماماً بصفتها مفردة تعيد الدجاج إلى أصوله، واكتفت بالاعتقاد أن (بيضة) هي وصف للمرأة عكس السوداء أو السمراء، وربما ستكون قريبة من الشقراء، مع ذلك كانت تهز رأسها موافقة، طاردة بقايا الليل عن عينيها وقد أطلت حزم ضوء الفجر من ستارة غرفتها، ستارة بلغت من الثخانة ما جعل اللصلصة عليها مستحيلة خلال قيامها بخلع ملابس النادي الليلي وارتداء ملابس منامتها، وهي مجرد خيوط صغيرة، تُغلق الشقوق الضرورية في جسدها المضاء باحتفالات سهرات متبجحة.
ــ دجاجة أم بيضة؟ قالت له.
أوضح رحيم، أنه مزمع على التحدث معها باللغة الفرنسية، فاعتذرت لوبا مؤكدة أنها لا تعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية وكذا اللغة الإنكليزية، فحصيلة تعليمها في وارسو لم تتجاوز اللغة البولونية، ووصولها إلى دمشق جعلها تعيش في عزلة عن مجموع لغات الدنيا باستثناء اللغة الموحّدة، وعنت بذلك لغة الجسد.. الجسد وحده الناطق بجميع اللغات الآدمية، وأحياناً اللغات الحيوانية.
ــ البكاء يحرر الروح من جحيمها، على البكاء أن يكون مصحوباً بالكلام..
همس مخاطباً نفسه، ثم أكّد لنفسه ثانية بأنهما اثنان، هو وهو، وتيقّن أن بوسعهما (هو وهو) الاستغراق في ثمار الدجاج العجيب: البيض ذي الروائح المنتنة.
البيض؟! هو السؤال الأعمق في تاريخ الفلسفة (من هو أسبق البيضة أم الدجاجة؟)، وهو المعركة الأكثر ضراوة في حياة رحيم التي بددت ثروته، وجعلته يقعي كما كلب مشرّد على أرصفة دمشق بعد أن تلفت مئات الصناديق من بيض الدجاج التي كانت في مستودعه.. بيض تالف خلّف، وفي مصادفة بيولوجية عجيبة، صوصاً واحداً خرج من بيضة وتجوّل في ممرات المستودع وهو يركل بأصابعه الصغيرة المرحة بقية البيوض المحطمة إثر ركلات رحيم وتعفيسه لها.
قال لنفسه: أنا يا رحيم راغب في البكاء، ثم طلب من رحيم الثاني أن يشاركه بكاءه مؤكداً: إننا اثنان متصاحبان منذ أن خُلقنا، لقد بزتنا الوالدة المرحومة في اللحظة ذاتها.. الثانية ذاتها.. الداية والولّادة ذاتها.. وصمغ الحليب الأمومي ذاته شربناه يا رجل!
بكى رحيم الأول بحضرة رحيم الثاني، وهدهد رحيم الثاني رحيم الأول ثم تبادلا الأدوار.. بكى رحيم الثاني بحضرة رحيم الأول وهدهد رحيم الأول رحيم الثاني، ثم باتا يتبادلان البصاق.. رحيم الأول بصق فوق وجه رحيم الثاني.. رحيم الثاني بصق فوق وجه رحيم الأول، وفجأة أوقفا معركتهما واستدارا معاً ليستحلبا بصاقهما معاً ويلقيانه فوق لافتات ملأت جدران العاصمة.. لافتات تشيد بإنجازات تاريخية لأبطال تاريخيين، كما لافتات تُقدّر عالياً المزايا الفريدة للدجاج المشوي بتقنيات شواء هي الأحدث، تقنيات منسوخة من «ماكدونالدز» وتتبيلات من البهارات المستوردة خصيصاً من الهند لشعوب ذوّاقة لمنوعات الدجاج.
حين افترقا (هو وهو)، تابع رحيم السير بمفرده ملتصقاً بجدران ملطخة بالنعاوى والسخام.. ثم أيقن كما العادة أن اللعبة انتهت.. حان وقت الجد يا رحيم.
ــ ابكِ يا رحيم!! كان يقول، ثم يضيف: بالله عليك أن تبكي يا رجل!
ثم حين خروجه من غرفة لوبا المزروعة في فندق «برشلونة»، لم يلحظ رحيم أنه يجفف دموعه بالمناديل الورقية المخصصة للنساء الحائضات، كما لم يلحظ أنه دسّ كتلة من هذه المناديل في جيب معطفه الطويل، ولكن كاراميلا التقطت المناديل الورقية، وخبّأتها بحرص في صندوق مُصدّف قديم، هو كل ما تركته أيدي الحمّالين الذين أخذوا أثاث بيتها، وساروا نحو ناقلة الأثاث كمن يحمل نعشاً ويجول

فيه مكبًّرا في الطريق إلى مقبرة.
الصندوق المُصدَّف، المُفضَّض.. خشب الجوز الذي يحكي حكايات جدة رحيم وقصة مهر كاراميلا (وهو كومة الكلاسين).. هذا الصندوق رافق كاراميلا إلى قريتها وادي الرف، وكانت قد ادّخرت عشرات الأدلة الدامغة على الخيانات المتتالية لرحيم، الرجل الذي لا يشبع من لوك النساء ومضغهن.
أدلة دامغة، واظبت كاراميلا على تخبئتها وسترها عن عيون رحيم، فعلت ذلك لسبب ربما ما زالت تجهله، سبب قد يعني أنها لن تضع زوجها الثمانيني تحت رحمة الفضيحة، ربما يعني منحه الفرصة ليعيش أكثر، ربما لسبب ثالث مختصره أنها لن تنتزع نفسها من تقاليدها، تقاليد تتصل بإصرارها على أن تُدفن مع فائض من الأسرار المختبئة في قلبها وأن: تبقى الأرنوبة الصغيرة.. الأرنبة كاراميلا.
غير أن أحداثاً كبرى وقعت، قادتها إلى انقلاب في طبيعتها، لتخلع رداء الأرنبة هذا اليوم، وتتجه كالطير إلى داخل بيتها بخفة جناح.

– 5 –

ارمِ كرتك أيها المهبول!

حين دخلت كاراميلا وقد تحوّلت إلى بركان غاضب تخلّى عن روح الأرنب، بعد أن صاحبتها روح الأرنب طويلاً، فتحت صندوقها الخشبي وراحت تلقي بمحتوياته يساراً ويميناً، وتطلق أشياءه ومقتنياته في فراغ الغرفة.. كثيرة هي الأشياء التي تساقطت فوق رأس حفيدها سيف.
ــ انظر يا جدتي.. من أين جمع جدك كل هذه الكلاسين؟ من أين فردة الحلق النسائي هذه ومن أية أذن انتزعها؟ من أين جلب قلم الحمرة هذا؟ ومن أين جلب الجوارب النسائية بكل هذه الكميات؟ انظر إلى حاملات الأثداء التي يخزّنها!
ثم صرخت:
ــ الكلب ابن الكلب ما الذي يفعله ببذلة الأسنان هذه؟ لا شك أنه انتزعها من فم أم ديمتري التي سطا على أموالها.. إنه جدك الكلب.. الكلب أبو الكلب أبيك.
ــ أنت تحبينه يا جدتي.. ها؟ قال سيف ضاحكاً، ثم قرص جدته فوق ردفها.
ــ مثل جدك لأبيك.. كلب ابن كلب!
قطعت كاراميلا ابتسامتها، وانغمست ببكاء جارف.. بكت كما لو كانت تستودع دموعها في ثنايا مستقبل برسم ذاكرة حفيدها.
سألها سيف:
ــ جدتي لماذا كان يخونك على الدوام؟
ــ لأنه مصرّ على أن لا يكبر.
ــ ولم كنت تتقبلين خياناته؟
ــ لأنني كبرت مبكراً.
ربما كان سيف حريصاً على مشاركة جدته آلامها، غير أن حرصه لم يحُل دون اختلاس واحد من الكلاسين ودسّه في جيب سروال الرياضة الذي يرتديه، وحين خرج تاركاً جدته تتابع التنقيب في صندوق وثائقها وأرشيف عمرها، اتجه إلى جده ليرفع الكلسون من جيبه ويلوّح به.
ــ جدي هل تتذكر صاحبته؟
كان رحيم، قد تجاوز كارثة البيض، وكان قادراً على استحضار ذاكرته كما الفولاذ.. كثيرة هي الأشياء التي تعطلت في جسد هذا العجوز، قدماه ارتختا، وكذا دليله الذكري الذي ربما يباغته مصادفة، وحدها ذاكرته لم تتعطل، فحتى اللحظة الأخيرة من حياة الجد رحيم ونعني لحظة الأبد، ما زال يستحضر كل أنواع الذواكر: ذاكرة الرائحة، ذاكرة اللون، ذاكرة الماضي وذاكرة المستقبل، وحين يضرب على رأسه قائلاً: نسيت، فلا شك في أنه يكذب.
نعم، الجد رحيم يكذب، ويزيّن كذبه بالاعتقاد أن الكذب ميزة عبقرية!
ــ إنه، إنه ماذا؟
ــ الكذب هو واحد من الدفاعات الذاتية التي تحمي حياة الإنسان، صدّقني يا جدي أنني لا أكذب، كل ما في الأمر أن أبو فسي يطلق روائح كريهة ليبعد شبح الحيوانات المفترسة عن افتراسه.. إنني أبو فسي يا جدي.
لم يكن رحيم ليكذب أبداً.. كان يتخيّل، كان صغيراً أكثر من طفل وهو يرقص متعثراً على ألحان مطرب قروي مغمور لم يتجاوز مسرحه خشبة عرس، كان رحيم شخصاً آخر غير الذي يتخيّله البشر المستقيمون الذين يملؤون أرواحهم بالقوانين الوضعية، والذين يمارسون احتجاجاً باهتاً على العجوز

وهو يعيد انتخاب نفسه تسع مرات كأجمل فتى في القرية، وسط مرح صاخب لأعراس متناثرة لفلاحين لم يسأموا التكاثر والتكني بأسماء أولادهم الذكور البكر، وكانت الطلقات ترتد من مخزن بندقيته كحبات البَرَد، حرصاً على إعلان بهجته بالعريس مُتَصدر الساحة تحت وابل من غبار أقدام الراقصين، وكأنما الرقص وصفة معاندة للموت.
لم يكن ليجدّف أبداً.. كان حريصاً على الظهور كمن يحترم المقدّس، وكان دائم المثابرة على اختراق الوصايا العشر مركّزا على الكذب باعتباره أقل الخطايا جرحاً لمشاعر السيد يسوع، وقد ترك وصاياه إرثاً خالداً لبشرية ربما لن ينالها ما يكفي من الوقت لمقابلة مخلّصها.
ــ هل تخاف الله يا جدي؟ سأله سيف.
لم يجب رحيم عن سؤال الحفيد.. كل ما فعله أنه اتجه إلى التوتة وتسلّق الأرجوحة المثبتة عليها وصاح بالحفيد: ادفعني يا سيف.. ادفعني.. يا الله حين تهتز الأرجوحة تركض السماء من فوقي.
دفع سيف أرجوحة جده، وكان رحيم ووجهه إلى الأعلى يوثّق يقينه بأن السماء تركض من فوقه.
بقطع النظر عن الانهيارات النفسية التي كان يعانيها رحيم، فإنه يثبت غريزياً قدرته على مواجهة حالاته السيئة، ولكنه كان يعرف في قرارة نفسه أن حاله يتدهور. تبريراته الفلسفية العميقة والمقنعة بآن، واحدة من تعبيرات تدهوره.
بدا أن رحيم وحفيده يحتاجان إلى خلوة صغيرة، لا بدَّ أن تكون تحت أغصان التوتة نفسها، وحين توقفت أرجوحته نزل رحيم وتمدّد تحت ظلالها، همس لحفيده:
ــ هذا كلسون أبرز مذيعة شهدتها مرحلة ثورة الثامن من آذار عام 1963، ثورة الحزب.. كانت أهم حارسة من حرّاس الحرس القومي، الله يا جدي.. الله على كلسون الثورة!
بدت ذكرى كلسون المذيعة، أقرب إلى ذكرى سقوط الرايخ مما هي مجرد ذكرى لقطعة قماش بفتحتين يتسلل منهما فخذان، ودكّة تربط القماش محتاطة أن لا يسقط عن ردفي السيدة المذيعة وهي تردّد أنشودة الحزب: من قاسيون أطل يا وطني.. فأرى دمشق تعانق السحبا.
حضرت تلك الذكرى أمام الجد وكأنها تحدث في هذه اللحظة..
ــ الآن يا جدي.. الآن وكأنها تحضر أمام عيني، هذه المذيعة كانت تأكل المستمعين، وقلّما سمعها واحد من متابعي نشرات أخبارها إلا وأصيب بدوار، وربما احتاج إلى المكوث في الحمّام ساعات وساعات.
ــ وأنت يا جدي؟ قال سيف، وأضاف: ولمَ الحمّام يا جدي؟
ــ لا لست أنا ممن يلجؤون إلى الحمّام.. حتى اسأل جدتك وهي ستقول لك.
ــ سأسألها.
ــ جدي هل كانت مذيعتك هذه تظهر في التلفاز؟
أربك سؤال الحفيد الجد.. ثم استدرك:
ــ المرأة صوت يا جدي.. بوسعها أن تقلب وتستدير وترفع فستانها أو تحتشم.. بوسعها فعل ذلك كله وعلى مرأى من المستمعين.. تفعل كل ذلك بصوتها.. نعم، بوسع الرجل الفطين أن يرى كلسون المذيعة من فتحة في صوتها.. صوت المرأة جدار، وبمستطاع المعماري الفطين أن يفتح فجوة في الصوت.
كمن أُصيب بأنفلونزا مفاجئة، تعرّق رحيم وبردت أوصاله، ورجا حفيده أن يغفر تداعياته هذه، وأضاف:
ــ لا يا جدي، هذا الكلسون ليس لأي من اللواتي عرفتهن.. إنه كلسون جديد، حتى شمّ!
ودفع بالكلسون نحو أنف حفيده، وكمن سيخفي زلّة جديدة سحب يده ثانية، ليطوّق بيده الأخرى كتف حفيده في مسيرة نحو الكروم المحيطة بالدار، ثم لم يلبث الجد أن استعاد بيان سقوط القنيطرة.
ــ والله يا جدي، كانت مذيعة عظيمة.. لم يكن بمقدورها إعلان سقوط القنيطرة، فاستقالت من التلفزيون الوطني، ومن بعدها رحلت ربما إلى الكويت، وثمة من يقول إلى السعودية، ولكن آه يا جدي، آه!
هكذا أسقطت القنيطرة، وبوسعي أن أترك لك بعض التفاصيل التي ربما لن تعوزها في لعبة كرة القدم،

ولكن ما لا شك فيه أنك ستحتاج إليها حالما تعرف أن بلادنا ستسقط في القريب العاجل.. نعم ستسقط مدينة إثر مدينة، وقرية إثر قرية، ولكن لن تجد مذيعة واحدة تمتنع عن تقديم نشرة الأخبار، نعم، يا جدي، إن مذيعاتنا يقدّمن نشرات الأخبار من مؤخراتهن، لا من أفواههن.. هن كذلك، هكذا خلقهن الله، وهكذا استسغن الإذعان لمشيئته.
من التفاصيل الصغيرة جداً، أنه حال إعلان سقوط القنيطرة أصاب والدة جدك، وأعني أمي، جلطة دماغية، لا لسبب سوى لأنها كانت قد استغرقت في تعداد طائرات الميراج التي أسقطتها مدافعنا المضادة للطيران، وحال أن كبر العدد، وضاقت ذاكرتها باتساعه باتت ترسمه بالطبشور الأبيض والأحمر والأصفر، في جدول إلى جانب جدول الحليب اليومي الذي تقرضه أو تقترضه من راعيات الأغنام اللواتي كن يضرمن قلوبهن لموسم (الهِداد) وهو موسم التكاثر والولادة لدى الماعز والأغنام.. حصل ذلك فعلاً، فقد تساءلت أمي المرحومة: وكيف سقطت القنيطرة ما دمنا قد أسقطنا ذلك العدد الكبير من الطائرات؟ الإذاعة.. الإذاعة تكذب.
وحدها تلك المذيعة خرجت بهدوء من غرفة الأخبار، ثم غابت، وبغيابها بات البث الإذاعي أشبه بالمآتم.. أي والله، باتت الإذاعة مجرد مستودع لمُرمّلات نائحات، وكنتُ أدخل جهاز الراديو متسللاً من وراء قماشه المُذهّب المُثقّب متأملاً تلك المعجزة... لم يكن لدي أدنى فرصة بأن أتقدم خطوة نحو الإلحاد بالله، كما لم يكن بوسعي أن أنسحب خطوة لرسم صلة نهائية ووطيدة مع الله، غير أنها وحدها كانت تشدّني نحو اللجوء إلى الله طالباً عودتها.. كان على الله أن يقرّر وكان علينا الانحناء لمشيئته.. صلتي بتلك المذيعة هي صلتي الوحيدة بالله، وكنت أتخوف من البوح بذلك، فنحن، الشيوعيون القدماء، توافقنا على الإلحاد.
ــ وهل كنت شيوعياً؟
تجاهل رحيم سؤال حفيده، وتابع:
ــ السمة الوحيدة التي جمعتنا هي الإلحاد، والسمة الوحيدة التي فرقتنا هي المذيعة، فبين أن هُزمنا عسكرياً وانتصرنا سياسياً، كانت المسافة لا تقبل القبول، يومذاك بدأت منظمة التحرير الفلسطينية تتسلل إلينا خلسة، تصطادنا واحداً واحداً، وتأخذنا إلى حيث: «الثورة العربية الشاملة»، ومن ثم: «طريق فلسطين يمر من عمّان»، وبعدها توافدت إلينا صيحات تأخذنا من جفاف الهزيمة إلى خيالات التحرير، وبعدها كانت محطات ومحطات، وها هي ذي جدتك تبحث في صندوقها المُصدّف عن عظامي وقد اندملت في الصندوق، مُنقبة بين الكلاسين عن امرأة تفتضح تاريخي الشخصي، وتجرّني إلى حيث الخيانات الصغرى، فيما الخيانات الكبيرة تسلخ الأوطان من بين أيدينا.
لم يكن رحيم يعلم سبباً ليدحرج أسراره هكذا من بين شفتيه، ولم يكن حفيده، وهو يحتضن كرة القدم مصالباً ذراعيه فوقها، ليسأم من تداعيات جده، غير أن رحيم وقد أدرك ثقل ذاكرته على اللحظة، جثا فوق أرض معشوشبة، مؤكداً لحفيده:
ــ ارم كرتك أيها المهبول.. لا يمكن لكرتك أن تخترق شباكي!
عندماَ كان سيف يلاعب جده كرة القدم، كانت الجدة تبعثر ما تبقى من أسرار الصندوق ومتحف غرام زوجها وهي تهمهم:
ــ أيها الفاسق، إنني أعشقك!

إنه يلمسها!!

ــ القرار يعود إليك.. قالت كاراميلا لحفيدها.
ليس ثمة وجه اختلاف واحد ما بين الحفيد والجد، كلاهما محكوم بزلاّت لسان فاضحة، هذه حقيقة تعرفها كاراميلا، وكان سيف قد ردّد على هاتفه المحمول:
ــ لا.. كل مدخراتها مجرد كومة من الكلاسين.. كل ما أريده الآن هو أن أحكي نكتة.
أصغت كاراميلا إلى ما يقوله سيف وهو يحكي النكتة بضمير المتكلم.. كانت تعرف أنه يلاعب فتاة على الجانب الآخر من المكالمة.. وأنه: نصّاب ومحتال وقحب.. تماماً مثل جده.
ــ ماتت منذ سنتين. قال سيف جادًّا وبلهجة يغلب عليها الحزن، وتابع: كانت أماً رائعة.
عمن يتحدث؟ سألت كاراميلا نفسها، وحين أنصتت أدركت أن سيف يتحدث عن يتمه هو.. هو بعينه ولا أحد سواه، ومع أن كاراميلا لم تكن لتكنّ أية عواطف لكنّتها الأجنبية والدة سيف، غير أنها طالما اعترفت بأن كنتها سيّدة نبيلة، بل سيّدة ربما خلقت لمهمة واحدة في هذه الدنيا هي الأمومة حباً وإرضاعاً وتنشئةً واحتواءً وإصغاءً وتقبُّلا لتقلبات ابنها لاعب الكرة المحترف، الذي بدا وكأنه سيهجر الكرة إلى الأبد، وهو يركض وراء فرق الروك أندرول، ويطلق أقدامه إلى رقصات فاجرة، مصحوبة بموسيقا ضاجة.. موسيقا مشغولة بآلات كهربائية، من مثل الجيتار الكهربائي الذي بات يشوّش على عالم الجدة.. عالم الجدة الذي اعتاد الأصوات الهامسة المبثوثة من تسلّل نسائم الهواء إلى بيتها الريفي هذا.
ــ الخيار لك.. أعادت كاراميلا القول مؤكدة لحفيدها: جدتي، إذا لم تكن سعيداً بالبقاء معنا غادر إلى أهلك، ولكن من العيب أن تميت أمك وهي على قيد الحياة.
ــ ولكنها ستموت يا جدتي.
ــ وكلنا سنموت.
ــ إذن نحن موتى المستقبل؟
ــ ولماذا تستعجل موتنا؟!
ــ لأن البنت التي تحكي معي تحب التراجيديا.
ــ وأنت تؤلف لها تراجيديا؟!
ــ إذا كان هذا يسعدها فلم لا؟
ــ وهل بوسع التراجيديا أن تُسعِد؟ قالت كاراميلا ضاحكة.
ــ بالطبع.. كم مرة قرأت أنت روميو وجولييت؟ في كل مرة كنت تبدين سعيدة.
رغم كل الشوائب في شخص حفيدها، غير أنها تدرك بالعمق أنه: «أذكى مما يجب وأعمق مما يجب»، وكان إيمانها بهذا يجعلها تغفر له الكثير من سلوكه المعوج، فيما إيمان الحفيد بثقافة جدته ينسيه حكايا الأرنبة التي لبست شخصية هذه السيدة التي لم تكن لترغب في أي من أيام حياتها سوى أن تكون: «السيدة المنسية».
ــ كم لغة تتحدثين يا جدتي؟
سألها سيف وهو يعرف الإجابة، كان على علم بأنها تحكي الإسبانية لغة مسقط رأسها، والعربية لغة أصلها، والفرنسية وهي لغة تعلمتها عنوة ليتسنى لها اللعب في الوقت الضائع وقراءة أعداد مهملة من صحيفة اللوموند الفرنسية التي علاها الغبار في أرشيف زوجها، وكذلك الإنكليزية بعد أن واظبت على متابعة دروس الراديو التي يبثها راديو B.B.C وها هي ذي اليوم تبدو أشد حرصاً على تعلم اللغة

الألمانية، لتتسنى لها فرصة التواصل مع كنتها الألمانية التي قد تكون في ضيافتها لأيام ليست بطويلة، فعلى الأذكياء أن يتعلموا اللغة.. نعم يتعلموا اللغة لا ليحكوا، بل ليصغوا إلى الآخر الذي يثرثر.
ــ إذن سترحل؟ سألت كاراميلا.
كان سيف قد حزم أمتعته، وكانت حقيبته قد حُمّلت بالكثير من ممتلكات الجد والجدة: أقراص فضية مشغولة بأصابع بارعة، ملاعق من فضة، خرز بألوان راقصة تجعله انكساراته مشعاً، وكمية كبيرة من الكلاسين النسائية التي أورثها الجد لحفيده.
حين وصل رحيم تاركاً سيارته الأمريكية القديمة في مدخل بيته الريفي متجهاً نحو البيت، كان على كاراميلا أن تحتاط من دموعها، كان عليها أن لا تبكي، فالبكاء إعلان عن النفس، بيان لن يسعها تلاوته.
ــ نحن لا نُقهر كثلاثة رجال عظماء!
قال رحيم لحفيده مؤكداً له، أن يعيد أباه إلى جوار الجد لاستعادة تشكيل العائلة ولمّ شملها، ثم قال:
ــ أعرف سمو وارتفاع هامتي، لن ينام التاريخ إن لم يعد الاعتبار لاسمي.. سيفيق التاريخ ذات صباح وينحني لي يا جدي.. أنا لست أضحوكة كما أبدو.. أنا جبل نار خمد وسيعود إلى لهيبه ثانية.. ولن أدعك ترحل قبل أن ننقب في هذا المكان الذي سيكون آجلاً مملكتك يا أميري!

***

حين تنشق الجد رائحة حفيده وهو يعرض له أوابد وادي الرف، ومن بينها واحدة من أقدم الكنائس المسكونة، تسللت إلى خياشيمه رائحة شمع تنبعث من جسد الحفيد المأخوذ بلوحات سقف الكنيسة وأيقوناتها الملمّعة حديثاً عبر طلائها بزيت الدهان، وكانت هذه الرائحة تمثل معجزة بالنسبة للحفيد، معجزة لا يمكن تفسيرها إلا بإحالة سببها إلى العسل الذي رضعه والد سيف منذ الصغر، ثم أورثه لابنه، وربما للدغات النحل التي حطت في دمه بعد تجربة شاقة مارسها الجد على ابنه سامي، حين كان سامي يحبو.. يومها كانت كاراميلا، أودعت طفلها عند أبيه بعد إلحاحات رحيم الراجية، أودعته وذهبت في رحلة تسوّق من وادي الرف باتجاه العاصمة.
ــ هئ هئ يا سيف، والدك أول طفل في تاريخ الخليقة يأكل الملكة!
حين استدار سيف متسائلاً عما يعنيه بهذا الكلام، أجابه الجد:
ــ لم أتركه سوى للحظة يحبو بمفرده، حتى امتدت يده إلى عش النحل وسحب منه الملكة وأكلها.. وبعدها...
ــ وبعدها يا جدي؟ سأل سيف جده.
ــ بعدها تكوّمت عليه أسراب النحل وأودعت لسعاتها في جسده.
ــ ولكنه لم يمت أليس كذلك؟
ــ لا.. أبداً.. أؤكد لك ذلك، وأقسم بحياة جدتك أنه ما زال حياً.. يوه.. لقد بات يخرى شمعاً وعسلاً.
ــ ولم تركته يحبو إلى عش النحل؟
لم يكن رحيم ليمتلك القدر الكافي من الشجاعة يحميه من الكذب، والاعتراف بأنها ما إن أطلت حتى نسي ابنه واتجه إلى «سراج الثورة»، فاتحاً ذراعيه لضمها، كانت سراج الثورة أطلت بربطة شعرها وجرابيها المرتفعين حتى كواحلها، وهي تحمل في يدها رزمة من أدبيات ثورة البعث، أدبيات تحضّ على الوحدة العربية، وهزيمة إسرائيل، واستعادة الأراضي السليبة، وشعارات خجولة تدعو إلى «رمي اليهود في المياه المالحة»، وحين وقفت سراج الثورة مقابله وجهاً لوجه، ضمّها إلى صدره وقبّلها في فمها، لتُخرج مع لعابها قطعة منسحقة من مخلل الخيار، ممزوجة بمخللات أخرى.
كانت سراج الثورة تنام وتحلم على قدميها، وتحفظ صمًّا نظرية فيثاغورث في المثلثات، وكانت بمجملها

متداخلة كأجساد جائعة.
لم يقل كل تلك الحقائق لحفيده، كما لم يذكر شيئاً عن حيثيات الجنس السريع الذي مارسه واقفاً مع سراج، وقد أغرقها بزيتها، لتغسل زيتها ببيانات حزبها، ويعلق فوق الأوراق شيء من الإفرازات الآدمية، إفرازات حملت بدورها رائحة المخلل الواخزة، وقد رافقته روح الخل هذه في الأيام اللاحقة التي تجوّل فيها قاطعاً نصف بلاد الدنيا.
فعل ذلك لا رغبة منه في الجنس، كما يمكن أن تذهب إليه ظنون من يُطلِون على مشهد كهذا.. إن كل ما فعله كان قد فعله ليمسح إفرازاته بأوراق الثورة.. نعم، كان الأمر هكذا (مع أنه لم يكن ليدرك الدافع الحقيقي وراء سلوكه هذا، فرحيم أكثر تعقيداً من أن يُقرأ، إذا ما تصفحته لمرة واحدة).
قبلة المخلل، وقد انتقل المخلل إلى فمه، لم تمنعه من سؤال سراج الثورة إن كانت قرأت جيمس جويس، وإن كانت تعلمت شيئاً من فن الجنس الهندي، غير أنه أدرك أنه سيضيع وقتها، إذا ما حاول أن يسرّب إليها شيئاً من الفكر الإمبريالي، الفكر الذي يلتهم الجنس كما تلتهم السيدة القومية المخلل، وكانت تعرف في قرارة نفسها أنها أخطأت أيّما خطأ حين رفعت تنورتها للأعلى مستسلمة لمداعبات أصابعه الوقحة، وأنه رجل لا يأبه لما يعتري الوطن من اهتزازات على بعد ذراع منه، ومن قريته الواقعة بالقرب من سفح جبل الشيخ، وعلى مرمى من المرصد الإسرائيلي الذي يفتح أذنيه إذا ما ثغت بقرة في الجزء المقابل من الأراضي السورية المحرّرة.
لم تكن تعنيه اهتزازات الوطن.. اهتزازات سراج الثورة وحدها ما كان يعنيه.. اهتزازات في ليل غامض أو في فجر يومه، وحتى في ساعات الظهيرة وعلى مرأى من السماء وقد كشفت عن زرقة صافية وشمس لا تتعب، وحدث هذا بعد زيارات متعددة قامت بها المبشّرة الثورية لزريبة رحيم، وتحت إبطها جريدة حزبها، وصور قائده.
ــ إنه يلمسني.
ــ أين يلمسك؟
ــ من الأسفل يا رفيق.. قالت المبشّرة سراج الثورة لرفيقها الأعلى، وهي تبلّغ فرقتها الحزبية بما آل إليه سلوك هذا البورجوازي النتن.
ــ فقط يلمسك؟
ــ بل ويهتز خلفي.
ــ وهل كنت تهتزين معه؟
ــ لا.. هو كان يهزني.
بدت عينا الرفيقة سراج من وراء عدستي نظارتيها الزيتيتين بالغتي الصغر، ولكنهما بالغتا القوة أيضاً، فما من امرأة في صفوف الثورة إلا وامتلكت شيئاً من خصائص القوة التي تبيت في تفصيلة من تفاصيلها الصغيرة. هذه المبشّرة كانت عازمة على الاستحواذ على الكثير من عناصر القوة، بدءاً باسمها الذي غيّرته من «فريزة»، إلى «سراج الثورة» ومن ثم إلى «هوشيه منه»، تيمّنا بالقائد الفيتنامي الذي رفع علم بلاده المستقلة ما بعد سقوط سايغون، ثم قررت أن تعود إلى «سراج الثورة»، وقد رافقها الاسم حتى مماتها مصحوباً برائحة المخلل.
نعم، سراج هذه، بعد قبلة المخلل، هي التي تسببت بمغادرة رحيم لوادي الرف، والعودة إلى دمشق العاصمة مصطحباً زوجته، متراجعاً عن عزمه على هجر المدينة ومواخيرها إلى غير عودة، ومجدِّدا عزمه على إحداث عملية تكاثر واسعة بعد أن انشغل طويلاً بالكيفية التي يمكنه فيها إنجاب أولاد زنى، ليس من اللائق أن يدقق في مصيرهم.
بعد نصف قرن مضى، آلمه كثيراً أن لا يتعرف على بذوره، على شتلاته شتلة شتلة، ليلمّ شمل أولاده تحت جناحه ثانية، ويغدو في قبيلته الجديدة رجلاً مكتنزاً بالعافية، مكتنزاً بسلالة كان يظن أنها ستكون

أولى السلالات الجديرة بصياغة كرة أرضية جديدة، وحين قرر العودة ثانية إلى وادي الرف، صحبة حفيده سيف آملاً بأن ينتشله سيف من الإحساس بأنه كائن منقرض..
أبلغه الحفيد:
ــ جدي.. بوسعك أن تلحق بي إلى برلين.. هناك ستجد الكثير من البشر الذين يتسكعون بمفردهم!
الذي لم يمحه الزمن، هو أن رحيم لم يكن ليفعل إلا ما تأمره به أحلامه، رجل مصنوع من القمامة، حسب التعبير الصريح لواحد من التقارير الموثقة عنه في وزارة الخارجية التي شكت من انعدام انضباطية السفير، وقد قاد بلاده إلى مواقف بالغة الحرج، أقلّه حين تأكّد للمراجع المختصة أن سفيرهم رجل من غزّالي الحكايات، وأنه حكى في حفل دبلوماسي في مدينة برلين (وكان بمرتبة قنصل قبل أن ينتقل إلى الكاريبي ويرتقي إلى مرتبة سفير) عن رئيس بلاده الذي يركب النمر ويتجول فوق ظهره ظاناً أنه حمار.
حكايا رحيم التي يمكن أن تُحكى ولا تُكتب كما جاء في التقرير، أحرجت حكومته بما جعل الحكومة أضحوكة في أفواه الدبلوماسيين الذين كثيراً ما قالوا بأن أي لقاء دبلوماسي موسّع، لا بدَّ أن يكون زوبعة سوداء إذا ما غاب عنه رحيم، رحيم الذي ضحك على الموت ألف مرة، وهو يعالج الدبلوماسيين الزملاء بنقيع روث السعدان، لتفرّ أورام مثاناتهم بعد أن يتراكض السفراء نحو فردوس المراحيض، وهو يتابع تأكيداته أن: «الوصفة ذاتها أنقذت السيد الرئيس!».
ــ برلين؟ آه من برلين، ردّد رحيم مندّدا بالمستشارة الألمانية، معتبراً أنها امرأة لا يمكن تشبيهها سوى بسمك السللور، وأنها:
ــ بلا قفا يا سيف، ليس بوسعي أن أعيش في بلاد تحكمها امرأة بلا قفا يا سيف! أنت حفيدي الوحيد، لا تدعني بمفردي يا سيف!
ــ الوحيد؟ أظن أن ألفاً من سلالتك يتجولون في الكرة الأرضية يا جدي.. لماذا لا تبحث عنهم وتلم شملنا؟ قال سيف ممازحاً جده.. ممازحاً نعم، غير أن مزاح الحفيد بدا أكثر دقة من بندول الساعة، فتلقفه الدبلوماسي السابق المبتسم، كما لو كان اجتراحاً لمعجزة.
ــ أبحث عنهم؟ تساءل رحيم.
ــ لم لا؟ أجابه سيف.
لم يكن سيف وهو يوطّد نظراته في وجه جده ليعرف حقيقة الجد، أهو حالم أم مجنون.. كل ما كان يعني الحفيد هو أن يدفع بالجد ليلهو أكثر.. وبعدئذ يداعب أوتار جيتاره مستدرجاً أصوات الطيور، وكان كلما توقف عن العزف يسأل جده:
ــ ما هو الحب يا جدي؟
ــ الحب هو أن تثابر على ارتداء قميصك ألف يوم إذا ما قالت لك إن قميصك جميل.
ــ وهل فعلت ذلك يا جدي؟
ــ يووه.. إن قمصاني قد بلغت ضعف كلاسين النساء التي تخبّئها جدتك في صندوقها.
قال لحفيده، ثم بدأ يشرح له تاريخه مع الكلاسين النسائية متيقناً أن أكثر الكلاسين قرباً لقلبه، كان كلسون البدينة فوزية، وهي من فاق وزنها وزن فيل، مضيفاً للحفيد المصغي، أن مطاط كلسون فوزية يكفي للإحاطة بجيل من النساء، وقد احتفظت فوزية بعذريتها حتى شيخوختها، لسبب يعود إلى فشل جميع مناورات الرجال الذين عرفتهن، في التسلل إلى وردتها، رغم المناورات الحثيثة التي لا بدَّ أن يتدخّل الشيطان في رسمها.
كلسون فوزية، أحال كاراميلا إلى فقاعة من ثلج، فكلما ابتهلت إلى الله أن يعيد لها زوجها من قذارات النساء اللواتي ينهرسن تحت شيطانه، كان هذا الكلسون يقودها إلى يأس مطبق لا ترجو الله بعده، وكانت تعود بعد أن تفرده فوق أرضية غرفتها إلى هدوء الموتى، متيقنة من أن تغيراً عجيباً سيطرأ على

حواسها.

– 7 –

رحلة لمّ الشمل.. هل نامت أمك معي؟!

في طريقه إلى مغادرة وادي الرف نحو العاصمة، أوقف سيارته الخضراء، السيارة الفورد، الأكثر قِدماً، أوقفها في ساحة القرية، وكانت مجموعات من الشباب الأربعيني والثلاثيني وشباب في العشرينيات يقفون أيضاً متكئين على جدرانِ الدكاكين، في مشهد يوحي ببطالة مزمنة. جال رحيم في وجوههم وجهاً وجهاً متأملاً قسماتهم، متأملاً أنوفهم وألوان عيونهم وألوان بشرتهم. في البدء كانت نظرته تقلب الوجوه بحثاً عن أنوف طويلة ملتوية من وسطها، وبعدها جال بنظراته باحثاً عن أعناق تحمل تفاحة آدم ضخمة، تصعد وتنزل مع كل كلمة يمضغها أحدهم أو يبصقها، وقد خُيّل إليه أن للكثير منهم مثل ما له من تفاحة وأنف بتجويف من وسطه.
ــ أقسم أن هذه التفاحة تفاحتي، وأن هذا الأنف أنفي!
نظر إلى شاب يقف مُصالباً ذراعيه فيما كان الشاب ينظر إليه نظرات متحدية، لم يُعر بالاً إلى نظرات الشاب ولكنه أمعن في تدقيق طوله، أنفه، كتفيه واستدارة عضلاته. حتى تلك الشامات السوداء التي تتوضع في خديه وجبينه هو، رآها متماثلة مع الشامات في وجه هذا الشاب.. يا ألله! قال مخاطباً نفسه، ثم صعد إلى السيارة عاقداً العزم على العودة قريباً ليلمّ شمل العائلة.
تقدّم الشاب لينقر فوق زجاج سيارة رحيم. التفت رحيم إلى الشاب.
ــ أظن أنك السيد رحيم الحلبي! قال الشاب لرحيم.
ــ وأظن أنك ابن...
لم يكن رحيم ليبالي باسم والد الشاب، كان يبحث عن اسم أم الشاب، وربما عن شكلها، طولها، لون عينيها، لون بشرتها، ولو كان ثمة فسحة لسؤال، لكان سأل: وهل نامت أمك معي على الواقف أم على النائم، على جانبها أم على ظهرها؟!
قطع الشاب ذهول رحيم وتداعياته، وطلب منه بتهذيب لا يخلو من عجرفة: هل أنت بطريقك إلى دمشق؟
أجابه رحيم بلهفة ورجاء: اصعد.. أنا أذهب إلى حيث تريد أن أذهب.
بعد أن أقفل شارة مذياع السيارة، التفت رحيم إلى الشاب الجالس إلى جانبه: لم تقل لي ما اسمك؟
ــ اسمي جواد.
وقبل أن يعطيه فرصة للاسترسال في الأسئلة تابع جواد بابتسامة مُرّشّدة:
ــ أدرس طب الأسنان في جامعة دمشق.. أظن أنك ستحتاجني ذات يوم.. أنت توصلني إلى الجامعة وأنا أخلع أضراسك.. واحدة بواحدة.
بريق عيني جواد، تماماً كبريق عيني حنين.. عينان تضحكان، هو ابنها، قال رحيم لنفسه، ثم: دمه من دمها.. والله إنه يحمل دم حنين وتفاحة رحيم، أضاف، وسأل الشاب: دكتور، هل تعرفني؟
ــ أوه ومن لا يعرف رحيم.. الآغا الأحمر؟
ــ الآغا الأحمر؟!
لا يعرف رحيم حقيقة هذا اللقب الذي التصق به، كان رحيم قد قرأ باستمتاع مجموعة الكتب المتصلة بالثورة الروسية، وكان فكّك حياة جوزيف ستالين قطعة قطعة ونشرها فوق مسوّدات لم يحتفظ بها أياماً حتى سئمها، ثم سئم ملاحظاته المثبتة على هوامش كتاب «النبي المسلّح» وقد أعرب فيها عن إعجابه بشخص ستالين، ليعيد تدوين ملاحظات فوق الملاحظات الأولى تحمل الكثير من السأم من شخصية ستالين.
لم يشعر بذلك الإحساس مع قراءته لسيرة ليون تروتسكي «النبي الأعزل»، فقد شدّته سيرة هذا الرجل..

السيرة الشخصية للرجل، وكان إتقانه للغة الفرنسية قد سمح له بالاستزادة من حياة تروتسكي، خصوصاً ما بعد ثورة الطلبة الفرنسيين لعام 1968، وبروز مجموعة من الأسماء العربية التي هاجمت سلطة الدين والدولة والعائلة، وأناخت بظلالها على الكثيرين من طلبة الجامعات ممن ينتمون إلى اليسار الجديد.. كان انشداده لشخص تروتسكي قد تأتى من اعتقاده بالمظلومية التي حلت بهذا الرجل، وبسبب اكتشافه لهذا الدافع أعاد ثانية تقييم عواطفه، ثم ما لبث أن بدّد كل العواطف المتضامنة مع ضحية المنفى.

ــ طزّ بهما! قال ذلك وكتبه على الصفحة الأولى لكل مِنَ الكتابين، وأضاف: وطز بإسحق دويتشر مؤلف الكتابين معاً!

وبالرغم من كمّ (الطزّات) الكبير التي طرّزها، لم يهتز إعجابه ولا لثانية واحدة أمام استخلاصات التروتسكيين التي قلّلت من شأن العائلة.

العائلة؟! نعم العائلة التي عاد رحيم ليلمّ شتلاتها، وهذا واحد من عائلته يجلس إلى جانبه في رحلة أغرقته في ماض سحيق اعتقد واهماً أنه تخلّص من رائحته.. قال للشاب الجالس إلى جانبه:

ــ قلت لي إنك طبيب أسنان، ها؟

ــ لا.. لم أدّع هذا الشرف.. أنا ما زلت طالباً.

ــ لا بدَّ أنك تحب مهنة طبيب الأسنان.

ــ أكيد إنها المهنة الأكثر إغواء بالنسبة لي.

ــ هل أستطيع أن أسألك السبب؟

ــ لأنني سأتعامل مع ناس لا ينطقون.. لا بدَّ أن حضرتك تعلم يا آغا أن المريض عند طبيب الأسنان لا ينطق.. لا يتكلم.

لم يستطع رحيم أن يحدّد ما الذي يقصده هذا الشاب، وما الهدف الذي يسعى إليه من هذه الإجابة، ولكنه اختار استخلاصاً واحداً من جملة استخلاصات، استخلاص يأمره بأن: اصمت أيها الرجل العجوز وتأمل منعطفات الطريق!

«يا ألله!» همس رحيم مخاطباً نفسه، كاد أن يبكي، أن يجهش بالبكاء، أن يعلن أنه هو الأحوج في هذه اللحظة إلى الحكي، ليسأل الشاب: من هي أمك يا بني؟ وليلفت الشاب إلى أنه يحمل الشامة ذاتها التي يحملها، تفاحة آدم ذاتها، الأنف ذاته المكسور من وسطه، وربما الصوت ذاته حين كان رحيم فتى بعمره. كان يهم بالقول: أنت ابني يا بني!

استعاض رحيم عن الحكي بمحاولة ابتلاع أكبر كمية من الهواء، قال للشاب: افتح باب السيارة يا بني!

فتح جواد باب السيارة وكانت تنطلق بسرعة مبالغ بها، وحين تساءل الشاب مستغرباً، قال له رحيم:

ــ لا لشيء.. فقط لنشم هواءً نقياً سنفتقده حال أنْ نصل إلى المدينة ومزابلها.

أدرك رحيم أن إجابته لم تقنع الشاب الذي فتح الباب نصف فتحة ممسكاً بالمقعد، وكان عليه أن يوضح أكثر:

ــ ربما لم يتسنَّ لطلبة طب الأسنان معالجة نقص الهواء!

لم يجب الشاب عن سؤال رحيم، غير أن رحيم كان مدركاً أنْ لا إجابة لدى الشاب ذي التفاحة الناتئة عن سؤال كهذا، ولهذا أعطى لنفسه الحق في الإجابة، قال للشاب إنه من الخلل أن يتنكر المرء لأمراضه، أو حتى أن يحاول معالجتها بنقيع روث السعادين، وأضاف مبرراً:

ــ المرض وحده هو الكائن الذي يعترف بنا، خذ مثلاً أنا، رئتي وحدها من تعترف بي، لولاها لما شعرت بأنني ما زلت على قيد الحياة وبأنني ما زلت وراء هذا المقود.. تصوّر ما الذي سيكون عليه حالي لو تشابهت رئتي مع رئات بقية البشر المتشابهين!

قال رحيم وبصق، ثم:

ــ الإنسان، الكائن المريض.. كائن وسخ.. خذها مني، ليس ثمة من هو أغبى من الإنسان، وليس من هو أكثر قسوة وحماقة منه.. ما لا أشك فيه أن مساحة المباول المخصصة لنوعنا أوسع مئات المرات من مجموع بيوت التماسيح التي تعيش في كرتنا الأرضية.. أطنان هائلة من الخرسانات بنيناها من أجل أن نتبول، فيما مليارات الكائنات تبحث عن مسكن، ومن بينها كائنات تنتمي إلى نوعنا.
لم يعد ممكناً وقد بلغ الحديث هذا المدى، لم يعد ممكناً على طالب الطب الشاب، أن يسترسل أكثر في الإصغاء إلى تخريفات العجوز رحيم.
ــ تخريفات؟ نعم، هي كذلك، وأنا متيقن من يقينك أنني أخرّف، ولكن قل لي أيها الشاب: هل تستطيع أن تحدّد لي يوم مولدك؟
ــ كان مولدي في 3 نيسان من عام 1987، أجاب الشاب.
بدت نظرات الشاب إلى رحيم أقرب إلى الرفض العميق منها إلى قبول الترويض الذي يمارسه رحيم على المخلوقات التي يقابلها، ترويض غالباً ما أتى عبر خطوات: الخطوة الأولى هي استثارة الناس ضده وسوقهم للاستياء منه لاحقاً. الخطوة التالية استدراجهم لقبول هذا الاستياء. بعدها الاستمتاع باستيائهم، وهي الخطوة الثالثة التي يتقن رحيم اللعب بها.
كان رحيم يستمتع باستياء الآخرين منه، لا لشيء سوى لأنه استنفذ الكثير من المتع التي درج الناس على اتباعها، متع من نوع حب الناس له، أو استلطاف غرابته، أو ارتياد الملاهي الليلية، أو حضور مباريات كرة القدم ومتابعة كأس العالم، أو سلسلة من الزيجات السرية، ومجموعة من المتع التي لا تحصى، ومنها مرافقة نساء حوامل إلى عيادات الإجهاض السرية، وبيع وشراء الخيول، والاستماع إلى الموسيقا، واستهلاك منتجاتها تباعاً، كما استمتع أكثر من أي متعة بالخسارة في جولات ميسر، كان يُخسّر نفسه فيها، مانحاً خصومه شيئاً من الشعور بالتفوق الذين كانوا أحوج منه إليه.
لم يتبقَ من المتع سوى متعة واحدة حطت بكثافة على رأسه هذه اللحظة، متعة استثارة استياء هذا الشاب منه، ولهذا فقد مضى دون أية حسابات إلى استفزازه بأسئلة من نوع:
ــ هل تلاحظ يا بني أن تفاحة آدم التي تحملها تشبه تفاحتي؟ هل تلاحظ أن أنفك منكسر من منتصفه كما أنفي؟ يا ألله، لا بدَّ أنك تشبهني أيّما شبه، حتى أكاد أعتقد أنك من صلبي، وأن دمك من دمي!
كان يقول ذلك ثم يدير مرآة السيارة نحو وجه الشاب مفرقعاً ضحكة صاخبة.
ــ يا ألله! كم سيكون رائعاً حدسي إذا ما تحقق في هذه اللحظة.. ستكون أجمل خطيئة يرتكبها إنسان عابر في هذه الدنيا.. إذا ما تحقق حدسي ستكون خطيئتي سامية!
ثم:
ــ حاول أن تتصور نفسك على هيئتي.. هل تعلم ما الذي سيعنيه ذلك؟ إن لذلك معنىً واحداً وهو أنني لن أموت أبداً، سأعيش بك أيها الولد!
حين وصلا إلى مدخل مدينة القنيطرة، وتابعت سيارتهما طريقها من تحت قوس النصر الذي ثبتت فوقه صورة رئيس البلاد والراحل والده، بدا الصمت عالي النغمة، بعد أن تقدم منهما ضابط استخبارات، ووراءه حمار رخيص ومطيع، طالباً بطاقتهما، قال لهما متفحصاً بطاقتيهما: ألستما عميلين إسرائيليين؟ ها!
تجاهل رحيم سؤال ضابط الحاجز، وانطلق بسيارته رافعاً صوت آلة تسجيلها إلى الآخر، وهو يردد طالباً من جواد:
ــ اعزف موسيقا.. اعزف بفمك.. اعزف مع الفرقة.. اعزف!

***

حتى الأمس، لم يكن الموت قد امتطى قدر البلاد، غير أن روح الاستكانة بدأت تذوي في السكان، فيما مديرو القتل لم يعودوا منشغلين بالابتزاز والدعارة والتهريب فحسب، بات انشغالهم اليوم منصًّبا على تدريب فرق الإعدام التي انتشرت في طول البلاد وعرضها.

– 8 –

دجاجات أفيغدور كهانر العاريات

اكتفت السلطات بقتلى متفرقين، وبالقبض على المعارضين من مفكرين وسياسيين وطلبة جامعيين ومتظاهرين، وكانت العاصمة أكثر هدوءاً من الأطراف وأكثر احتساباً لما يمكن أن يواجه البلاد لاحقاً.. فالطبقة التجارية أقامت مصاهرات مع البيروقراط الحكومي وشاركته في الكثير من نشاطاتها، وانتماء كثيرين من السكان إلى الأرياف لم يسمح بظهور مجموعات سكّانية منتمية إلى ثقافة واحدة أو بيئة واحدة أو معتقدات واحدة. مع ذلك غصّت المقاهي بالمثقفين الذين يقرؤون الحالة، ويستظهرون نشرات الأخبار عن ظهر قلب، ويكررون الحوارات المنفعلة للمحطات المتوترة، وقد برهنت الانقسامات الأكثر حدة التي شهدتها صفوفهم ومجالسهم على كمّ الثرثرات التي يطلقونها، كما برهنت على انتشار ثقافة هي محصلة: ثقافة المقهى.
مزيج من لغة تعبوية يتخللها الكثير من الكيد السياسي، ناتج عقود من إلغاء الشراكة الوطنية.
ــ تعال نلعب النرد! قال رحيم لصلاح نادل المقهى.
ضحك صلاح.. كان النادل صلاح يبشّر بولادة نجم، وثمة نجوم للمقاهي كما هي الحال في الثقافة السورية، وفي الحياة السياسية فيها، رموزٌ يمكن القول إن الكيمياء اختارت لهم أن يكونوا هكذا.
ابتسامة صلاح الطيّبة، طالما خفّفت وطأة سأم رحيم، وربما أحزانه وقد اختبأت تحت كمّ هائل من المخادعة التي يتقنها والتي تُخفي آلام روحه، وعالم المادة السعيد الذي هو جسده، طالما أخفى روحه التعيسة المتعبة.
صلاح وحده، كان يخترق عالم المادة هذا ويعرف بالتمام والكمال حقيقة الوضع النفسي لرحيم، وكان يسارع إلى إحضار الشاي لرحيم دون أن يخفي ابتسامته.
ــ عم رحيم.. سأجلب لك كتاباً باللغة الكردية.
ــ ولكنني لا أعرف اللغة الكردية!
ــ أنا أترجمه لك.
ــ ما الذي يقوله الكتاب؟
ــ لا أعرف..
ــ إذن لماذا ستجلبه لي؟!
ــ كي تقرأه... و تتسلى.
كان رحيم على موعد مع صلاح سدّد فيه على تعلم اللغة الكردية، وكان قد حفظ صمًّا تلك الجملة الكردية القابلة لأن تتحول إلى نشيد وطني: «جياتنم بافي فهد»، وترجمتها الحرفية: «نيك أم أبو فهد»!
والمقصود بـ «أبو فهد» هنا، مُخبرٌ كهل، بأذنين واسعتين، يتنقل من طاولة إلى طاولة فارداً أذنيه نحو الأحاديث التي تطول الحكومة، ويمكن نقلها على هيئة تقارير أمنية، غالباً ما لا تأخذها دوائر الاستخبارات على محمل الجد.
أحاديث من نوع: طول عنق الرئيس.
قبل أن يرشف رحيم رشفة واحدة من الشاي، توالت الأخبار عن تظاهرات ضخمة في درعا، أودت بحياة حزمة من المتظاهرين، حسب رواية المعارضات السورية، التي زادت أن السلطات اعتقلت مجموعات من الأطفال، واقتلعت أظافرهم، ونكّلت بهم بعد تبولهم على صورة للسيد الرئيس.
وكانت مناخات العاصمة أخذت تبدو كما لو أنها دخان ثقيل أسود.
لبضعة أسباب قد تبدو أوضح مما هي في الواقع، شجب رحيم الموت شجباً شديداً.. كانت الضواحي قد

التهبت، وكان الموت يتجول ببطء، ولكن بإنذارات تعد بالمزيد.. شجب الموت.. نعم، ليس موت الأطفال أو المتظاهرين فحسب، بل الموت الذي لحق بالكثيرين من أفراد قوات أجهزة الاستخبارات التي قُتل منها الكثير أيضاً، وعُلق بعض أفرادها من عنقه فوق أعمدة الكهرباء.
شجب موته هو أيضاً.. موته المقبل الذي قرأه متيقناً أن البلاد تذهب إلى موتها، مُشكِّكا في عقده القديم مع الله.
خرج رحيم من المقهى عائداً إلى منعزله، كان مزمعاً على كتابة بيانه الأول، يحتج فيه على الموت، ويعتذر عن استقباله.
بعد أيّام من مغادرة المقهى، كان نص البيان مرمياً على بلاط شقة رحيم، وفيه كُتب:
سيدي الرئيس:
السلطة كالمرأة في المجتمع البطريركي لا يتزوجها شرعاً اثنان، وما يحصل في البلاد يقول بأن السلطة ستفلت من يدك.. وكما أعلم فإن إغراءات السلطة بوسعها أن تبلغ حداً يسمح للأب بانتزاعها من أحشاء ولده.. لهذا لن أطالبك بمغادرتها وهذا يبرهن على أنني أتفهمك.
أيها السيد، من العار علينا أن نوغل في الوهم أكثر مما نحن واهمون، فالشباب الذين خرجوا إلى الشوارع في تظاهرات تطالب بالتغيير، إنما خرجوا إضافة إلى دافع الملل، خرجوا بدافع آخر، يعرفه من جرّب وجع العزلة، كحالي أنا كاتب هذه الكلمات، الذي سيجعل اسمه مُغْفلاً، لأن رهاب المكان المغلق يجعلني أقل شجاعة من أن أتقدم برسالتي هذه وقد طبعت عليها اسمي الصريح، الذي هو: «رحيم الحلبي».
أيها السيد، كل الإشارات تقول بأن انتصار السلطة قد يحدث، ولكنني أتساءل: كيف يمكن أن نتعايش مع بشر لا يرتضون تعايشاً معنا؟
أيها السيد، كل الإشارات تقول بأن السلطة ستسقط، ولكنني أتساءل: ما هو مصير السلطة والبلاد إذا ما انتصر المنتصرون بالقوة؟
أيها السيد، تعال نلعب لعبة المهزوم قبل أن يُهزم.. أولاً جرّب أن تهزم نفسك لتجرّب متعة مضافة إلى متعة السلطة.. متعة ليس بالوسع إدراكها إذا لم نعِ شرطها، وشرطها يا سيدي على صلة باللعب:
لاعب نفسك واخسر، ثم احتفل بانتصاراتك.. هكذا أفعل أنا في لعبة طاولة النرد.. أفعل ذلك وأحتفل لأنني مهزوم على طول الخط، فحين أطلب «هبّة يك» يأتيني «دوشيش»، وحين أطلب «دوبارا» يأتيني «دوسي»، وحين أطلب «جهارا» واحداً يغيب «الجهار» عن حجر النرد.. معرفتي بهذا تدعوني لأقلب الطاولة وأحتفل بهزيمتي وألملم جميع ندل المقهى لأبلغهم بأنني انتصرت، وعندئذ يفطس اللاعب المتحدي ويخسر انتصاره.. هذه سلطتي التي أمارسها.. نعم يا سيدي ها أنذا أمارس سلطتي على هزيمتي، ولو كنت منتصراً لمارستها على انتصاري، وفي الحالين أنتزع السلطة من أحشاء واحد ما.. الهزيمة أو النصر، وكلاهما ولدي!
مشتاق لرؤيتك وأنت تطل من الشاشة الفضية لتقول لي: «مللت، دعني أمضي إجازتي في ربيعي وخذ ربيعك!» عندها سأرمي حجر النرد وأقول لك:
شكراً يا سيدي! لم يعد بوسعي اقتطاف الربيع، فكما ترى يا سيدي، بتّ عجوزاً هرماً، رجلاً منسياً، حكاية كل ما فيها من ربيع أنها قابلة لأن تُروى، ولكنها غير قابلة لأن تُعاش، فالسلس البولي بات مصاحباً لحياتي، وكل ما أستطيع فعله هو أن أتذكر وأبول، ولو كان من الممكن أو الوارد أو الأخلاقي استئصال الذاكرة، كما حال استئصال الزائدة، لفعلت.
قبل أن يستكمل رسالته، وكان يسعى ليضمّنها خبراً علمياً بثته محطات تلفزيونية مختلفة، كانت أصوات مشاجرة عائلية صاخبة قد هزّت سكون وحدته.. كان الخبر يتضمن إنجازاً علمياً يقول بأن مخابر الهندسة الجينية قد أنجزت في مختبراتها دجاجاً بلا ريش.. كان عليه أن يتذكر كل الأيام التي أنفقها في

المداجن متجولاً بين صفوف دجاج يتوّرم، وكان عازماً هذه اللحظة أن يغتسل.
لن يستطيع فعل ذلك.. نعم، قال لنفسه بأنه أكثر ضعفاً وخيبةً من أن يدخل غرفة الاستحمام ويدلق الماء فوق رأسه، فالاختناقات المتتالية التي يعانيها نتيجة ضيق التنفس والخوف من الأمكنة الضيقة، جعلته أكثر تدقيقاً في اختياراته وجعلته ينسحب من اقتراحات كهذه، لم يعد الوقت يتسعها، فحكاية الدجاج التي تبدو وكأنها مجرد خبر عابر لمحرر كسول ينقلها إلى المواقع الإلكترونية، بدت أكثر إقلاقاً وأعلى أجراساً من أن تكون مجرد «خبر» يعبر بخفة.
نعم، أولاد الكلب يلتهمون الطبيعة.. ما معنى أن تنتج للدنيا دجاجاً بلا ريش؟
تساءل رحيم، واستغرق في التأمل بالأبعاد الأخلاقية التي يحمّلها صاحب الابتكار الفريد، العالِم الإسرائيلي أفيغدور كهانر، لاكتشافاته في علم الجينات، مبررات أخلاقية مصاغة على النحو التالي: «إنتاج دجاج بلا ريش.. الريش يثقل كاهل الدجاج ويحدّ من سرعة نموه».
مع أن الدجاج، كان بالنسبة إلى رحيم ليس أكثر من ذاكرة بائسة، أقلّه تبعاً لما ألحقه بالعجوز من هزائم ما بعد تلف البيض وإصابته بنكسة مالية هائلة، مع ذلك وجد نفسه منحازاً إلى عالم الدجاج هذه اللحظة، منحازاً إلى حق الدجاجة في أن تولد وتنمو وتكبر كما صمّمتها الأم الطبيعة الأولى، تنمو بريشها وبطيف ألوان هذا الريش أيضاً.
وكان يحث خطاه باتجاه ساحة السبع بحرات الدمشقية متتبعاً طريق الجسر الأبيض باعوجاجاته، وحين وصل إلى مستديرة السبع بحرات، جال حول البحرة في حركة دائرية وكانت صنابيرها تلقي رذاذ مياهها فوقه، ودون أن يأخذ نفساً عميقاً، كعادته حين يصرخ.. صرخ مرفرفاً جناحيه كما ديك يُذبح ثم أطلق شعارات صاخبة، شعارات صوتية يمكن ترجمتها لاحقاً: «كي كي كي كيكا». كان يقصد أن يقول: «الدجاج يريد إسقاط النظام.. النظام الكوني برمته»!
لم يلتفت أحد إليه، حتى مجموعة الجنود المحيطين بالساحة، الجاثمين وراء بنادقهم.. ثمة حقيقة أزلية أدركها رحيم.. حقيقة تقول: «ليس للدجاج من يمثله».. ثم: «أنا ممثله الشرعي والوحيد»!
وبات كمن أثقلته حكايات التطور المشوّه الذي لحق بالدجاج.. كان يستدرج ذاكرة الأساطير الدينية متسائلاً إن كانت القيامة على وشك أن تقع، ولكن: لم يشب الغراب بعد، لم يلد البغل بعد، إذن ثمة مسافة ما بيننا وبين القيامة..
طمأن نفسه، واستغرق في استعادة ذكرى القديسة ميري ومياه البحيرة التي تداعب فخذيها، متيقناً من أن جثثاً كثيرة ستتدلى عارية من أعمدة كهرباء المدينة، فرائحة حروب الأزقة تنتشر في وجوه الناس.

– 9 –

Game over!

هي تعرف امتيازاتها كسيدة، ومعرفتها هذه كفيلةٌ بمنحها رعشةً، أيّما رعشة، وربما بدت امتيازاتها أكثر وضوحاً وجلاءً وهي تُخرج متعلقات نساء غريبات من صندوقها، واحدة إثر أخرى.
ما خبّأته في صندوقها المُصدّف الذي نقلته إلى وادي الرف، مع ما تبقى من أغراض غفلت عنها عيون مصادري أثاث بيتها، أنبأها أنه من غير الممكن لسيدة مهما بلغ سموها أن تتغافل عن كل هذا الميراث المنحط لزوج بالغ في نزواته.. كانت تعرف ذلك، ولكنها كانت تعرف أيضاً أنها سيدة: «الملاذ الآمن»، وأنها مساحة ربما ستكون الأكثر نيلاً من أي مساحة بوسع امرأة أن تحتلها في رجل، وهي المساحة التي تتطلب أصابع أكثر ليناً، وقبضة أكثر قوة من قبضة امرأة.
لم تكن كارامبلا عازمة على أن تقول شيئاً لحفيدها قبل مغادرته، كما لم تكن جاهزة لتعترف بأنها باتت الملاذ الأخير لرحيم الحلبي في أيّامه الأخيرة، كانت عازمة على التستر أمام حفيدها عن كل ما حمله جده إلى التاريخ من سفالة وضِعة، غير أن الحفيد وكان يتفحص أشياءها قطعة قطعة، لاحظ من جملة ما لاحظ أن جدته لا تعزو شيئاً إلى النوايا الخبيثة، وأنها قادرة على صوغ التبريرات الكافية لمنح الرذائل ما يكفي من المعاني لجعلها فضائل شاهقة.
ــ إنه جدك! قالت لحفيدها، وتابعت: عليك أن تتقبل جدك كما هو، كل البشر ولدوا محاطين بشروط الحياة ما عداه هو.. هو من كان يشترط على الحياة ما يريد، وكان على الحياة أن تخضع لمشيئته!
ــ أهو الله يا جدتي؟ سألها حفيدها.
ــ معاذ الله! لا تجدف يا ولدي.. إن أسوأ ما يمكن أن يفعله إنسان هو أن يغمز من قناة الله.. إياك أن تعيد ذلك!
ــ ولكن ما تقولينه عنه ينطبق على الله وحده.
ــ لا.. ربما بالغت قليلاً فيما قلت، ولكنه رجل مكابر عنيد يفعل ما يحلو له، هذا ما قصدته.. والحياة عاقلة وحساسة وذكية، ولهذا عَرَفتْ من هو جدك واستجابت لنزواته.
ــ وأنت هل فعلت ما تشائين؟
ــ بالطبع.. إن كل ما فعلته كان برضا وقبول مني.
ــ وكل ما فعلتِه كان من أجله هو.. أليس كذلك؟
ــ ليس لي من رجل غيره. لنفترض أنني لم أكن لجدك فلمن سأكون؟! قالت ذلك ملامسة استخلاصاتها العبقرية في حفظ الذات، ومبررة فساد زوجها، وكأن فساده شيء من الفضيلة التي احتكرها بمفرده، مما دفع حفيدها اللاهي إلى القول:
ــ كيف يمكن للمرء أن يكون قابلاً ما لا يقبل؟
أكدت كارامبلا لحفيدها أن ما لا يمكن قبوله يمكن الركون إليه، وها هي ذي جدته تقبل بما لا يُقبل، وربما لهذا السبب همس لجدته:
ــ جدتي، أتمنى أن أكون كما جدي!
لم يكن الحفيد يتوقع أن تنعطف جدته تلك الانعطافة الحادّة، مع أنه كان يقرّ بأن للجدة الحق في أن تذهب لما يعاكس أمنيته هذه، ولها الحق في أن تقول له:
ــ اخرس، لا تكرر هذا على مسمعي ثانية! لا أريد لذريتكم أن تتكاثر على النحو الذي تكاثر به جدك.. لا أريد لذريتكم أن تكون من أبناء الزنى.. أريد من كلّ منكم أن يعرف أباه.. أريد لأولادكم وأحفادكم أن يعيشوا تحت جناحكم لا أن يُعثر عليهم مرميين في ممرات المشافي أو أمام بوابات الأبنية والمزابل

ومخافر الشرطة.
ــ وهل والدي ابن زنى؟
ــ لا إنه ابني يا جدتي، إنه من صلب جدك، وزواجي بجدك كان زواجاً دينياً صرفاً.. زواجاً بشهود وشيخ وعقد ومقدم ومؤخر.
لم تكن قادرة على البوح بأن مهرها كان كومة من الكلاسين النسائية تقدر وقتذاك بأقل من مئة ألف بوليفر بقليل، ولكنها كانت راغبة في قول ذلك لحفيدها، غير أنها كانت عازمة أيضاً أن تذهب بعيداً في استعادة أبناء زوجها وأبناء أبنائه، وكان عليها أن تتعرف على أولاده الحرام من خلال أشياء ومقتنيات النساء المتروكة في صندوقها، والتي غالباً ما انتزعتها من المخابئ السرية التي كان رحيم يدأب على اختيارها وتكويمها في هذا الصندوق، مبدئياً بتستر وكتمان، وبشيء من الاستهتار في مراحل لاحقة، وكانت المراحل اللاحقة هي المراحل التي غدت فيها كارميلا امرأة مُطمئِنَة، امرأة لا تثير أية مخاوف لدى زوجها الذي يكبرها بما يزيد على ثلاثين عاماً، وهي أعوام كافية لإقناعها بأنها لم ترشد بعد، وبأنها القاصر الأبدية.
كان رحيم يكرر على مسامعها أنه لم يأت إليها بِكراً، وكان يضيف القول إنه زرع الكثير من الأطفال في مزارع متوزعة على كل القارات المسكونة في هذه الكرة الأرضية: «نعم، ثمة الكثير من الأعراق بين أولادي، أعراق آسيوية وأعراق أوروبية وكذلك أسترالية وأمريكية وإفريقية، وثمة الكثير من المتوسطيين الذين لهم سحنتي»، كان يقول لها ويضيف متباهياً: «ملحي عالق على وجوههم»، و: «سحنته هي هي.. السحنة ذاتها التي ولدت فيها ولم ينقص منها سوى أخاديد الوجه وتجاعيده، وكذلك الإوزة التي نبتت أسفل ذقني بسبب السُّمنة والتقدم في العمر».

***

بداية زواجها برحيم، كانت كارميلا طفلة تنظر بكلتا عينيها إلى قامته الفارعة وحشرجات صوته ولغته الساخرة التي لا تخلو من الروح الآمرة، واليوم بات الرجل العجوز الذي يستخدم عقوده الثمانية في منح نفسه حق الخطأ وهو يتكئ على مبرر خرف الشيخوخة.. رحيم من يحدد علو إرادته من هبوطها، وهو من يبرر ما شاء كيفما شاء، وهذا هو بالتحديد ما دفع ابنه الشرعي الوحيد سامي إلى الهجرة دفعة واحدة تاركاً وراءه قلب أمه وروحها التي طالما تاه في أغوارها.
ــ سامي، أبوك يحبك!
ليس من اللائق أن تكرر كارميلا هذا القول لابنها المتذمر من والده، فهو على يقين من العدمية العاطفية والأخلاقية التي يعيشها والده، هكذا كان اعتقاد سامي قبل هجرته تاركاً والديه لوحدتهما.. نعم كان رحيم أكثر وحدة من شجرة متيبسة رغم كل المظاهر الاحتفالية التي يحيط نفسه بها، والتي تأخذ شكل ملاعبة ندل مقهى الروضة، كما تتبدى بالغة المبالغة في لعب النرد مع لاعبين محترفين يوبّخ انتصاراتهم عبر الاحتفال بهزيمته.
Game over كان يصرخ في وجوههم ضاحكاً صاخباً.
يصرخ هكذا، لافتاً أنظار بنت مكتنزة تتصدر عمق المقهى ويتنافس الرجال على اشتهاء لحمها العاري، فيما تحيط نفسها بصبيان مراهقين يلاعبونها ورق الشدة، ويتهمها الرجال الخرفون بأنها تتعاطى أجوراً بالغة من زبائن يخرجون إلى الضوء من وراء زجاج سياراتهم الكاتم للضوء.
وحده رحيم كان يراها تزهر على تلاله، وتضيء ظلمة عمره، معتبراً أن هذه البنت قد ولدت من أحشاء القمر، لتصوغ البشر المحملقين فيها على صور من خطايا جديدة لم يعتادوا عليها وهم الذين يطلقون

سعال نراجيلهم في فضاء مقهى المثقفين المعارضين، مثقفون يقطعون ثقافتهم إرباً وهم يقرؤون الاحتمالات التي ستتدحرج إليها البلاد، وقد باتت تسبح فوق رقصات الخناجر وتُدَك بالقنابل، كما تتوزع السيارات المفخخة في مفارق وأزقة مدنها.
مع أنه (وبقليل من إعمال الحدس) كان يمكن قراءة وحدة رحيم.. مع ذلك كان سامي متيقناً من الصلافة الكلبية لوالده، تلك الصلافة التي أطلقته على النساء وقد رسم غرائزه فوق وجهه، غرائز قلّما أوصدت امرأة أبوابها لها، وحين يستشعر العزوف عنه كان يستخدم كل الحيل الممكنة والوسائل المتاحة منها والمبتكرة، كنثر الليرات الذهبية تحت أقدام اشتهاءاته، كما نثر لغته المسكونة بالألغاز والحيرة والسؤال.. كان رحيم مبتكراً للسؤال الذي يَحث سامعه على البحث عن الإجابة، وهذا ما أغرق ليالي الكثير من عاهراته في لجة أسئلته، فبتنّ يتقلبن في أسرّتهن كما الذبائح في حُمّى الأسئلة.
عاهراته؟
نعم هو من أطلق عليهن هذا الاسم، أطلقه عليهن كلّهن بما جعله لا يستثني أيًّا من اللواتي عرفهن من هذه الصفة، كلهن.. كلهن، وبضمنهن سميرة طراد المنتحرة، مدرّسة اللغة الإنكليزية التي شبكها عن طريق قراءته المتبصرة بوليم شكسبير، واستغراقه في قراءة بطله عُطيل، دون أن ينسى استخدام خيال عُطيل الذي يعني فيما يعنيه العضلات المفتولة، والأكتاف الضخمة، والعزيمة التي لا تجارى، وبالتأكيد لا بدَّ من إضافة شقاء الشك الذي يعيشه البطل الشكسبيري.. عطيل هذا كان مطية لرحيم، وهو من أغرق المدرّسة به، وجعلها تقطع المسافة ما بين سكنها في الشيخ محي الدين وبين ساحة الميسات، وهي تبحث عن منديل وقع على الرصيف في محاكاة غبية لديدمونة زوجة عطيل.. سميرة التي منعت تلميذاتها البنات من حمل المناديل الحريرية، كانت تقنع تلميذاتها بأن عليهن مسح مخاطهن بأكمامهن والامتناع عن اقتناء المناديل كي لا تسقط من أيديهن ويتهمن بالخيانة، وكان عليها أن تجازف يومياً بانتظار مرور رحيم من تحت نافذة المدرسة الثانوية، وهي مبنى من بقايا العمارة الفرنسية، مصمَّمة بروح الوقت الراسخ، عكس مجموع العمارات التي بنتها مرحلة حكم حزب البعث، الذي جعل العمارات ذات الطراز الجديد أشبه بالزنازين منها إلى دور التعليم، ولا شك في أن الملابس الكاكية الموحّدة لطلبة المدارس أضافت الكثير من الإحساس بمزاج الثكنة، مما جعل لمدرسة الميسات وقعاً خاصاً، نسج أحقاداً فظيعة من قِبل الموظفين الحكوميين من أبناء الفلاحين الذين استولوا على السلطة، كما استولوا لاحقاً على هذه المدرسة، وقد ربطوها سياسياً بالثقافة الاستعمارية، ما أدى إلى إقفالها وتحويلها إلى مستودع لاحتواء فضلات أفكارهم الحزبية لاحقاً.
سيدتي، قالت سميرة طراد وهي واقفة أمام باب بيت كارامبلا، وكانت كارامبلا تعرف أن وراء هذا الوجه الحزين حكاية حزينة، كان وجهاً يحمل زمهريره، منكسراً بانتظار أن تقول لها: تفضلي.
في صمتهما وهما جالستان على مقعدين متقابلين، وإلى مقربتهما موقد الحطب، كانت النظرات المختلسة من عيني كل منهما إلى عيني الأخرى تشي بشيء من عزم متبادل، واحدة للبوح والثانية للإصغاء إلى ما ستبوح به الأخرى.
فور أن نطقت سميرة اسم وليم شكسبير، وقعت كارامبلا في دوامة ما تتوقع.
ــ حكى لك عن هاملت حسب ظني.. عن التردد القاتل الذي يعيشه بطله الشكسبيري؟ to be or not to be، ودون أن تخفي ابتسامتها أضافت: هذا النصّاب لا يعرف من اللغة الإنكليزية إنّ وأخواتها.
ــ لا.. حكى عن عطيل.
ــ ورأيت نفسك ديدمونة؟
ــ لا.. لم أكن كذلك.
ــ وأوقعك بروعة الخيانة على ما أظن، وخنتِه؟.. أنت لست ضحية!

قالت كاراميلا لسميرة، وتابعت تقول لها بأنها مجرد امرأة لاهية اسـتـعذبت أن تلهو بحياتها، قالت كاراميلا كلاماً بدا مثل لكماتٍ محترفة من قبضة صلبة فوق وجه سميرة، قالت لها:

ــ أنت تستمتعين بالضرب على قفاك، وهو ككل رجال الدنيا، يلزمه من يقول له: اركلني.

لم تُبد كاراميلا أي تعاطف مع سميرة، ولم ترَ في قضيتها ما يجعلها قضية، كانت حريصة على الدفاع عن زوجها، وعلى تقديم مرافعات تبدّل إشاراتها ولكنها تذهب في اتجاه واحد، اتجاه يقول: مسكينة أيتها المدرّسة بنظارتيك السميكتين، مسكين بلعومك الذي يتنشق طبشور السبورة!

حين خرجت سميرة من منزل كاراميلا، كانت تعرف طريقها، على العكس من اللحظة التي وصلت فيها إلى البيت ذاته، وحين حطت دموعها فوق مخدتها تيقنت أنها مجرد بنت بلهاء، وحين تناولت السم، وقضت نحبها منتحرة، وقف رحيم يتقبل العزاء كبقية أهلها، وعندما أخبر كاراميلا بانتحار سميرة قال لها:

ــ ليس ثمة امرأة في هذا الكون تنتحر.. كل ما في الأمر أنها قد تخطئ في تقدير الجرعة!

هكذا قال رحيم لكاراميلا، وأضاف ما معناه أن النساء مستعصيات على الانتحار، لا لشيء سوى لأنهن لا يصَبن باليأس أبداً.

ــ المرأة كائن ملحاح ووقح.. ولقد أخطأ مطلقو تسمية سن اليأس على السيدات اللواتي يفارقهن الطمث، كان عليهم أن يسمونه سن جفاف العادة الشهرية.

هذا ما قاله حرفياً لكاراميلا، وكانت كاراميلا على عادتها، لا تنطق، لا تسمع، لا ترى.

ــ كنت القرد الصيني يا جدتي! قالت لحفيدها قبل سفره متناسية وعدها القاطع، وعدها لنفسها بأن تحافظ على زوجها وسمعته، ثم أضافت: لو لم أكن كذلك لأخبرته أن سميرة انتحرت وفي بطنها جنين يركل أحشاءها.

لم تكن تدري أيّة دوافع شيطانية سحبتها لتحكي وقائع حياة رحيم السابقة لحفيدها، ولكنها حين أنهت تساؤلاتها انقطع التيار الكهربائي، وانقطاع التيار هذا جاء أشبه بإنقاذ لموقف الجدة.

كانت كاراميلا التي بالغت في جرأة البوح، خائفة من الالتفات إلى عيني حفيدها، إلى تعابير وجهه وردات فعله، وكان الحفيد يلملم حكاية حياة لم يكن ليطولها عبر رفيقاته من البنات اللواتي لم يجربن الحب بعد، أو بالأحرى لم يتعرفن إليه كفعل موت ونشوة جسد باستثناء بنت واحدة هي جولي، القادمة إلى دمشق مع والديها اللذين يعملان معاً في السفارة الأمريكية، والتي سبق أن واعدها في سالونيكا في واحد من أكثر البارات انحطاطاً، وقد بات يرسم خطواته على خطوات جده رحيم.

جولي هذه ارتمت فوق الحفيد النضر، وفركت صدرها بوجهه في ذروة لم تزد عن ثانيتين.. نعم، ثانيتان، وكان رحيم الذي علم بما حدث لحفيده قد رفع سبابته وإصبعه الوسطى معاً، مشيراً صارخاً:

ــ فيفا.. برافو! ثانيتان، هذا هو عمر المتعة الحقيقية، إن أية متعة تتجاوز الثانيتين تهلك، وتتحول إلى فعل مبتذل وممل.. ثانيتان تكفيان لإنجاب خمسة توائم!

على حائط أبيض من البيت الريفي، اتكأ صف من الصور للحفيد سيف: واحدة ساعة الولادة، واحدة وهو يحبو، واحدة مرتدياً بذلة سموكن سوداء وببيونة، وأخيراً سلسلة من صور سيف وهو في ملاعب كرة القدم، وثمة صورة واحدة لسيف وهو يحتضن جيتاره بين مجموعة من العازفين المارقين من كل سبب لتقبل ما تقبله البشرية من نظم ومنظومات عقائدية أو أخلاقية.

على الجدار المقابل مجموعة من صور تذكارات تنتمي كلها للجد رحيم، ليس ثمة صورة واحدة للجدة كاراميلا، هذا ما كشفته الشموع التي أضاءتها الجدة تلك الليلة، وهو ما بقي عالقاً في رأس الحفيد الشاب، الحفيد الذي لم ينم تلك الليلة وهو يدوّن ملاحظاته في رأسه.

صور الجد وهو يرتدي البذلة الكلاسيكية بين سيدات المجتمع الراقي، في نموذجٍ أوروبي يعود قرناً إلى الوراء، صورة للجد وأمامه طبق من الفواكه البرونزية المشوية وأكثرها بريقاً الأفو كاتو، صور بين

مجموعة من العذراوات المنتشيات، وسلسلة من الصور في حقل رماية، وأخرى في بحيرة يهطل فوقها البط البري المصاد بخردق من بندقية رحيم.
ملاحظات الحفيد أخذت شكل موسيقا الروك التي تبدو وكأنها تمعن في تكسير الزمن وتجاوزه. كان سيف لحظتئذ ضارب درامز لا عازف جيتار كهربائي، نعم، درامز، فالآلات الإيقاعية تعني في الكثير من أبعادها الضرب، التطهّر من الاحتقان والغل، بدا سيف وكأنه سيثأر لجدته من جده، وهو الشخص الأقرب إلى جده، الأكثر تماثلاً في الدوافع والرغبات والاستجابة وتقديس الذات الذي لا يدعك تنظر إلى الآخر أبداً.. كان الجينة التي قفزت من رحيم واستقرت في بطن ولّادة أنجبت حفيداً منسوخاً عن جده.
لا بدَّ وأن كنة رحيم، والدة سيف، طالما تخوّفت على ابنها من تأثيرات جده، غير أنها كانت تنعش في روحها شيئاً من العاطفة إزاء الجد وقد بات واقفاً على آخر درجات سلم الحياة، غير عابئة باعتقاده العميق بأنه سيكون خالداً وأنه لن يجالس الموتى أبداً.
لم تكن الكنة لتعبأ أبداً بهذيانات حماها، أقله أنها كانت تدرك أن حماها مسكون بالموت، ومنشغل ببرزخ القبر، ومضاد لطرائق الدفن الإسلامية، وكان ذات يوم طلب من كنته برجاء وتوسل أن تساعده في العثور على طريقة لحرق جثته بعد الموت، مؤكداً لها أنه اعتنق الديانة الهندوسية، وأن صديقه الهندي راجيف منحه القلادة التي لا بدَّ أن تكرّسه برهمياً، وكان يحث روحه على التحلي بتقاليد ديانته الجديدة، غير أن ثمة تحديات لم يكن بوسع رحيم تخطيها، وربما سيكون الدجاج هو التحدي الأكبر، فأن تكون برهمياً يعني أن تكون نباتياً، وثمة ملايين من الدجاجات المصطفات بانتظار موقده.
ــ راجيف، خذ قلادتك! قدّم خالص اعتذاري للسيد بوذا... قل له أن ليس ثمة ديانة قادرة على انتشال روح رحيم من جحيمها.
قال ذلك لصديقه راجيف ثم بكى، وهي المرة الأولى التي يبكي فيها بكاءً علنياً.
حين ناوله راجيف منديلاً ورقياً ليجفف دموعه، امتدت يد رحيم إلى قطعة من لحم الدجاج المشوي متسائلاً:
ــ هل للدجاج أرواح يا راجيف؟ أسألك ذلك لأنها إن لم تكن ذوات أرواح فإنني لا أفقه شيئاً مما أرى... لقد عذبت الدجاج كثيراً.
بروحه البرهمية اليقظة، تساءل راجيف عما إن كانت أحزان رحيم متصلة فعلاً باعتداءاته المستمرة على الدجاج، أم إن كان رحيم غارقاً في حكاية حب لم يخضع لمشيئته.
ــ هل أحببتها؟ سأل راجيف.
ــ أجل، ومللت منها!
ــ ألست تؤمن بالحب المتبادل؟
ــ الحب المستقيم لا يناسبني، إن حباً مستقيماً سيقودك حتماً إلى الكراهية.
ــ والحب المنحرف؟
بكى رحيم ثانية، وقبل أن يتناول المنديل الثاني من كف راجيف الممدودة، أجابه:
ــ إن حباً منحرفاً لا بدَّ أن يقودك إلى الجحيم، وهذا ما أبحث عنه يا صاحبي.
ــ أمن أجل جحيمك تبكي؟
ــ لا.. لا.. كل ما في الأمر أنكم أنتم الهنود تدلقون فوق طعامكم الكثير من التوابل.. لقد امتلأ أنفي بالفلفل، ولهذا أبكي.

تعال، يا كلب يا بن الكلب!

Game over

ليس بالوسع معرفة الحقيقة الحقيقية لانتشار هذه الكلمة التي اندلعت كما النيران فوق لافتات شباب محتجين في العاصمة التونسية، وانتقلت كما النار أيضاً إلى شوارع القاهرة وميادينها، ثم وصلت همساً إلى ليبيا واليمن، ودونما شك، كانت السلطات السورية بنُخبها ومفكريها وحرّاس ماضيها، قد غفلت عن احتمال وصولها إلى ساحات البلاد.

ــ نحن غيرهم!

كان هذا هو اللحن الذي عزفته التصريحات والبيانات واللقاءات الصحفية، وكان انتقالها قد تبدّى بادئ ذي بدء بالتجمهرات الشبابية المتضامنة مع الثورة التونسية، تجمعات استعانت بالشموع ووقفات الصمت، ومن ثم التصادم مع القوى البوليسية، وبعد ذلك موجات من الاعتقالات المحدودة، وبعدها بات الفيس بوك جداراً ممتلئاً بالكتابات المتوترة، كما بالتعليقات الكسولة، تعليقات بدت وكأنها مثابرة هواة على الانتقال إلى مواقع الكتّاب المحترفين الذين يبدؤون بمحاولات من الشعر المنثور الملفوف بمشاعر الاحتجاج والرفض، وكان رحيم بصفته واحداً ممن لا يستسلمون للزمن، شقّ طريقاً بين جدران زادت على الألفين، ربما لم يلفته منها سوى جدار واحد لبنت هادئة العذوبة واللغة، كان اسمها فرح جابر، وكانت تطلق لغة هي الاختزال شديد الدلالة عما يتسنى لنا أن نلتقطه بلغتنا المقروءة، لغة من نوع: ما هي العلامة الفارقة لوحيد القرن؟ وأحياناً بلغة أكثر بذخاً من مثل: لا شيء يعطى لنا مجّانا ثم يكلفنا غالياً مثل حرية التعبير!

لغة يقابلها نشطاء الفيس بوك بتعليقات تحرص على بقايا غباء معاند، وباستعراضات لغوية لشباب يحثون خطاهم ليكونوا في الكادر، في الصورة، في المشهد، ما يشوّش سؤال فرح الأكثر عمقاً من عبور تلافيفه بعقل الماضي أو بالحدس المُعطّل.

فرح هذه، ربما كانت اسماً مفترضاً، يقع على مداخل ما أبدعته أسئلتها، وربما تكون أنثى تجلس على مقعد محشو بطنافس الريش وقد غمرت نفسها بها لوقايتها من برد هذا الشتاء الوقح، وقد تكون شقتها في الطابق الثالث من بناء يتسع لغرفتين ومطبخ وغرفة جلوس صغيرة فيها خزانة ومقاعد من طراز لويس فيليب.

تلقف ناشطو الفيس بوك أسئلة فرح، تماماً كما لو بعثت لوحة عظيمة إلى واحد من الحمقى ليضع لها إطاراً ذهبياً شنيعاً، فتكون النتيجة أن يقتل كل تأثير سحري للوحة، كان عليها أن ترسم الإطار كما رسمت اللوحة، ولا بدَّ أنها فعلت ذلك وهدمت حائطها على الفيس بوك وغادرته دون أن تعود إليه أبداً.

أسئلة فرح وعزلة رحيم، ضاعفتهما حركات الاحتجاج الوليدة في سوريا، كما وضعت رحيم أمام خيارات أكثر قسوة، أمام أسئلة من نوع: كيف سأضع أقدامي في المستقبل؟ بات رحيم يكرر وكأنه واحد من مفردات الماضي المرشّح لأن يدفنه المستقبل: وأنا game over أيضاً.

المستقبل؟ تلك المفردة التي لم تكن، ولا ليوم من أيام رحيم الفائضة عن مليون يوم، تعني شيئاً.. كان المستقبل بالنسبة إلى رحيم مسبوقاً دوماً بـ (كان) ولنلاحظ المفارقة هنا: كان المستقبل.

كرّر رحيم (طز) كما عادته، وتابع بما يشبه الهذيان:

ــ ليس بوسع أي من اللغويين القول (كان الآن)!

ولكن رحيم هو الأحوج في هذه اللحظة، في هذا (الآن) إلى سيف، حفيده، وبذرته التي وصلت إلى الكون

من دمه. كان عليه أن يبكي. البكاء وحده هو اللغة التي ليس بوسعه أن يلصقها فوق أي من جدران الفيس بوك. هاتف رحيم حفيده سيف، دعاه إلى القدوم إلى دمشق، قال له بلغة آمرة: أيها الكلب ابن الكلب تعال إلى دمشق.. عُد يا ولد!

لم يتسنّ لسيف الإجابة.. إيجاباً أم سلباً، كل ما في الأمر أنه تلقى الأمر، وكان غارقاً في تجربة جديدة، محاولة لمزج الأغنية الصوفية بالروك أندرول، كان سيف يقوم بتجارب بصرية على الموسيقا. نعم تجارب بصرية، فجدّه رحيم، قال له:

ــ إن بوسعك أن ترى الموسيقا، أن ترسمها لا أن تسمعها.. حين ترسمها تفوز بسماعها.. هنا اللحن الواجهة، ووضع سبابته فوق ورقة بيضاء ورسم خربشات بخطوط مضطربة، ثم أكد: في الخلفية ثمة فراغات عليك تعبئتها!

لم يُخفِ سيف إعجابه بجده رحيم رغم المواقف الباردة التي كان يقرؤها في عيني والده سامي، وبالرغم من السلبية الفظيعة التي يتعاطى بها سامي مع والده رحيم، كان الحفيد أكثر إشراقاً وطهارة من والده، بل كان أكثر حرية وأعمق انفلاتاً من والده المكبّل، ودون أدنى شك بيولوجي، كان سيف قد تسرّب من خلايا الجد الحرّة، لا من خلايا أبيه الذي ترصّع بالشعارات المذهّبة.

وحدها الحرية بوسعها أن تفتح النوافذ على رحيم، القاطرة التي يمكنها أن تسوق الآخرين إليه وتوصلهم به، المكبّلون بالماضي، بمنظوماته الأخلاقية والجمالية والسياسية، لن يصلوا إلى هذا العجوز الذي لاعب الحياة واختبرته، فباتا هو والحياة في حوار وجدل، حوار يتخاصمان فيه ويتصالحان، ودائماً كان ينتصر على الحياة، بدليل أنه ما زال ينام ويصحو.

بعد أيام، في عصر ذاك اليوم الذي تساقط فيه عشرات القتلى في ضواحي العاصمة، هاتفه سيف:

ــ أنا قادم يا جدي.. قال سيف دون أن يحدّد متى سيكون قدومه، وسأل: هل ثمة قتلى عندكم؟!

ــ وحدهما الإنسان والجرذ يقتلان لمجرد القتل، بقية الكائنات تقتل لتبقى، لتأكل مثلاً، لتدافع عن بقائها. البشر وحدهم جرذان هذه الكرة الأرضية!

***

لم تكن الحالة السورية، قد شقّت طريقها نحو العنف بعد، وقد ذهب العنف لاحقاً إلى نهايات من الصعب تخيّلها.. هتافات الضواحي وهوامش المدن، كانت تتحضر لإطلاق تظاهرات صاخبة بدأتها قوى ذات مزاج يساري، وهذه تظاهرات اقتصرت على شعارات تحكي عن الفساد والإصلاح، ثم تطورت إلى أفعال دامية زحف الدم فيها ليحتل واجهات اللحظة السورية التي تخطت شعارات الأمس باتجاه شعار إسقاط النظام، وقد استفاق صانعوها من غيبوبة طويلة امتدت ما يزيد على أربعين عاماً، إلى غيبوبة لاحقة لم يتضح لرحيم إلى متى ستمتد في الوقت.

بالتزامن، كانت ليبيا تصحو على المعادلة ذاتها، وكان العقيد معمّر القذافي وصف خصومه بالجرذان وأعطى أوامره بمطاردتهم، وباتت تداعيات الأيام العربية أسرع من خطوات رحيم العاجزة عن التقاط تسارعها، وفي اليوم ذاته امتلأ رحيم بقناعة مفادها أن البلاد ستغرق في دماء أبنائها، كان يعجز عن قول ذلك علناً، غير أنه طالما رأى الدماء تنفر من رؤوس الشباب الحاملين شموعهم.

ــ ما الذي سيأتي بسيف إلى هنا؟ إن دعوتي إليه قد تتسبب بقتله!

قال ذلك مخاطباً نفسه، وكان في حقيقة الأمر، أقل خوفاً من الموت، غير أن ثمة فظاعة سيرتكبها الموت، وهي الفظاعة التي ستؤدي إلى حرمانه من رؤية سيف، كانت هذه الحقيقة الوحيدة المعاندة التي سجلها في دفاتر حياته الطويلة، وقد جلس بانتظارها وكأنه في معبد لن تنتهك حرمته.

هاتفه ثانية، قال له آمراً:

ــ أيها الكلب ابن الكلب لا تأتِ.. ابقَ حيث أنت!
ثم، اتجه إلى معبده ثانية، ليلملم بقايا أوراق قديمة ويلزّمها بخيوط القنّبِ، رسائل ربما كانت في معظمها متصلة بروح البغاء التي حلّت برحيم، وسيضيف إلى تلك الرسائل خصلاً مذهّبة كان قد انتشلها من فوق وسادة عاهرة بالغ في مضاجعتها.

تفاحة آدم.. الجد رحيم يتعقب دمه

أثر الاحتباس الحراري ارتسم على سماء المدينة، ولكن الحقيقة أن الاحتباس الحراري لم يكن هو الباعث الحقيقي لتظاهرات تلك الليلة، فالشباب الذين نفّذوا اعتصاماً أمام بوابة السفارة الليبية في حي المالكي الدمشقي الراقي منذّدين بالعقيد معمر القذافي، زحفوا في الأيام اللاحقة إلى ضواحي العاصمة، كانوا مسكونين بالحنين إلى التعرف على أنفسهم وربما بتغيير الحياة من حولهم، تغييرها دون أهداف واضحة ومحددة.
لم تكن متطلباتهم على صلة بالمعلن من أهدافهم، كتلك الشعارات التي يرفعونها والتي غالباً ما تطالب بالحريات وبسقوط الطغيان دون أية ملامح مطلبية من مثل: فرص العمل.. لم يكن رحيم الذي انتظم في الصف الأول من صفوف المعتصمين، لم يكن يحمل أيّة كراهية للقذافي، على العكس تماماً، فكثيراً ما كان يتأمل الرأس العاجي للعصا الماريشالية التي يحملها العقيد، كما كان يمعن النظر بسخرية طيّبة من خيمة العقيد التي لم تخل من المخمل المنجد وكبار قادة الكرة الأرضية، وأكثر ما كان يدهشه كمّ البدل الهائلة التي يعرضها العقيد القذافي، ومن بينها بزة عسكرية تنتمي إلى سلاح البحرية وقد انتظمت فوق صدرها كمية فريدة من النياشين المرصّعة بألوان صارخة.. مع ذلك هتف بإسقاط العقيد، وكان فعل ذلك لأن شرطياً من كتيبة حفظ النظام ضرب رأس صبي متظاهر، صبي له أنف منكسر وعضلات ناتئة.
كان رحيم قفز من بين الصفوف فاتحاً ذراعيه معريًّا صدره، في مواجهة رجال حفظ النظام وهو يصرخ:
ــ أطلقوا النار.. أطلقوا.. البنادق محشوة!
قفزته هذه تكرّرت بعد أشهر، وكان المطر يتبخر في حي برزة شمالي العاصمة السورية، حين اندفعت قوات حفظ النظام للاشتباك بالمعتصمين وحدثت الفوضى، فوقعت واحدة من البنات في أسرهم وهي تتلوى تحت أذرعهم كمن تتعرض للاغتصاب، وحين وقعت عيناها على عيني رحيم بدتا كعيني ضحية.
لا يدري على وجه الدقة ما الذي أسقط غرائزه جانباً هذه المرة، ولكنه يعلم علم اليقين أنها المرة الأولى من حياته التي تقع عيناه على امرأة دون أن يتلصلص على تفاصيلها، كذلك هي المرة الأولى التي يرى فيها امرأة ولا يظن أنها عاهرة.
هو كذلك طيلة عمره، عمره البالغ في هذا اليوم واحداً وثمانين عاماً، أعواماً أمضى منها ما يقارب خمسة عشر، عاملاً في السلك الدبلوماسي بين سفارات بلاده في كل من البرازيل والأرجنتين وفنزويلا، وقد عاد إلى بلاده تاركاً الحياة الدبلوماسية، ليعود مغامراً بماضيه، ويتزوج كارامیلا ويحشو فم والدها بالكلاسين النسائية. أعواماً طالما أحرج فيها تقاليد الحياة الدبلوماسية وتسبّب لبلاده بملاحظات غالباً ما تصل على شكل رسائل مهذّبة من وزارات خارجية الدول المُضيفة.
ــ سفير سابق، قال للمحقق بعد اعتقاله إثر تظاهرات برزة.
ــ سفير سابق؟!
كان سؤال المحقق جزءاً لا ينفصل عن إشارة التعجب: واليوم؟!
ــ اليوم عاطل بعد أن كسر ظهري البيض الفاسد وأفلسني.
من الصعب على المحقق الشاب تفهم هذا النوع من الإجابات، الذي كان حريصاً على إنهاء التحقيق مع عبد الرحيم محمود الحلبي، أمه ندى (وهذا اسمه الكامل)، بأقصى سرعة ممكنة، وكان حريصاً على أخذ خلاصة مختصرة عن شخصية هذا الرجل، خلاصة ذيّل بها مذكرته على النحو التالي: «عجوز هرم مصاب بخرف الشيخوخة».
قبل أن يخرج من غرفة التحقيق، سأله المحقق:

ــ سيد رحيم، الرجال الذين في مثل عمرك، يجدون في المساجد المكان المناسب لهم.. لم لا تمضِ وقتك في الصلاة؟
ــ لم أتعلم الصلاة ولم أدخل مسجداً طيلة عمري.
ــ أنت ملحد؟
ــ لا.. ولكنها خمس مرات في اليوم.. من الصعب علي الانتظام في مواعيد تتطلب ساعة يد وآلة حاسبة.

***

حين أخذ رحيم طريقه مشياً من منطقة الجمارك حيث تتراصف كتل المباني الأمنية، عائداً إلى بيته في الجسر الأبيض، حضر سؤال المحقق بثقله أمام عيني رحيم، فأعاد السؤال على نفسه وبصوت مسموع: هل أنا ملحد؟!
ثم أضاف: إذا ما كنت ملحداً فربما ستكون الطامة الكبرى، وستتضاعف هذه الطامّة إذا ما تذكّر الله يوم الحساب تلك الشراشف الوسخة التي أتركها ورائي بعد المعاشرة.
قال مخاطباً نفسه، وضحك بصوت مرتفع لفت عمّال التراحيل المصطفين وراء سلالهم ومجارفهم في ساحة عرنوس، وحين تنبّه إلى أنهم ينظرون إليه بنوع من الدهشة والشفقة، توقف أمامهم مكرراً جملة ذكية للبنت الذكية، فرح جابر، التي طالما تابعها على صفحات الفيس بوك:
ــ وحده الله يعلم إذا ما كان الملحدون على حق أم لا.
لم يكن يتمنى أن تكون البنت المعتقلة من صلبه، ولم يكن راغباً في استحضار أيّ من تفاصيل جسد هذه البنت ولم يدقق في أنفها، لم يتساءل أهو أنف منكسر أم مرتفع أم أفطس؟
كان يكره أن تكون سلالته من الإناث، أقله لأنه من النادر أن تعثر على أنثى تحمل تفاحة آدم، وإذا ما حدث ذلك فلا بدَّ أن تتخبط بأنوثتها، غير أن حقيقة موقفه هذا لم يكن مدفوعاً بمبرراته الجمالية المعلنة تلك، ففي حقيقة الأمر كان على ما يشبه اليقين أن البنت التي ستكون من صلبه لا بدَّ أن تشغل العواصم بعهرها، أقلّه إذا ماطفرت واحدة من جيناته واتخذت مكاناً لها في جسد البنت التي كان يمكن أن يطلق عليها اسم: لوليتا بنت عبد الرحيم الحلبي، أمه ندى.
كان يرغب على الدوام في أن تكون سلالته من الذكور، هو كذلك وإن لم يعلن حقيقة مشاعره تخوّفا من الأمزجة المدافعة عن حقوق المرأة، خصوصاً من نساء الاتحاد النسائي الحكومي وكان قادته من الرجال أو المسترجلات حصراً، لهذا تشبّث رحيم بطالب طب الأسنان، بالصبي الذي يحمل أنفاً طبق الأصل عن أنفه وتفاحة آدم طبق الأصل عن تفاحته.
في الأخبار التي تناقلها الشباب على جدرانهم في الفيس بوك، كتب واحد منهم خبراً يفيد باعتقال رحيم، وفي وصفه أفاض الشاب بتاريخ رحيم، وقد صيغ على هيئة تاريخ من الاعتراض المتواصل على السياسات العنفية التي رافقت حكم البعث منذ وصوله إلى الحكم عام 1963، ومن جملة ما كتب الشاب، سيرة مختصرة لرحيم عبدو الحلبي (هكذا كتب الاسم وفيه خطأ واضح): «رجل ثمانيني.. أحد كبار أساتذة القانون الدولي».
بعد نشر هذا الخبر على صفحات الفيس بوك، أطلق شاب آخر فيديو قصير على اليوتيوب يصوّر مشهد اعتقال عبد الرحيم الحلبي، وبعد الخبر والفيديو ذهب مجموعة من الشباب الذين يشكلون غرفة عمليات نشطة على الفيس بوك، لتنظيم حملة للإفراج عن العجوز المعتقل، وكانت الحملة تحت عنوان: «الحرية لعبد الرحيم الحلبي.. عنوان الاستقامة».
ملامح رحيم، وقبعته القش التي لم يكن لينزعها عن رأسه، أعطت لصوره المنشورة على الفيس بوك، شكلاً أقرب إلى أشكال رعاة البقر الأمريكيين، بملامحهم الذكورية المستندة إلى عمر مختبر، ما جعل

صوره تساهم في رسم خيال الأيقونة لرحيم، بين مجموعات من الشباب الذين يبحثون عن صياغة أيقونات لثورتهم.
اتقدت عينا رحيم وهو يفتح باب شقته، وخطا تعباً على أرضية البلاط القديم للشقة، كان يُستفز حين تهتز إحدى البلاطات تحت قدمه وقد تآكل اسمنتها وانفصلت عن جارتها بفعل الزمن.
رحيم الجائع، طالما تحاشى أن يأكل، لا لشيء، سوى لأن فكه يطلق أصواتاً عند المضغ، تنبئه بأنه بات رجلاً عتيقاً جداً، كما أواني مطبخه، وكما معطفه وكما أحذيته القديمة التي جلبها من كل عواصم الدنيا، من جميع الماركات الرائعة، من ميلانو وروما ومن باريس ومن بيروت وكذلك من لندن وواشنطن.
كان بيته فارغاً تماماً من الأثاث، حتى خزانة الملابس التي بقيت، بقيت وقد انتزعت منها أبوابها، وحين قرر أن يبدّل قميصه ذي الياقة الضيقة المزرّرة، شعر بالبرد يأكل جثته.
ــ طز بهم من ثوار! قال رحيم لنفسه، ثم أردف: يعملون تظاهرة دون أن يتابعوا النشرة الجوية.. تظاهرة في هذا الزمهرير القارص؟!
في الواقع كان الطقس متقلباً على نحو لا يسمح لأحد بأن يثق بأي من نشرات الأحوال الجوية، نهارات تنقلب من مشمسة وحارّة إلى صقيع بالغ، مناخات تمارس تبديل نفسها معلنة عن قيامة بيئية وشيكة، ولكن شقة رحيم باردة، مما جعل أصابعه تطقطق وهو يفكّ أزرار قميصه.
بين سبعة صفوف من بلاط صالة شقته مشى رحيم وهو يختبر لياقته البدنية، كان يعرف أن تصلب الشرايين ليس أكثر من مجرد روزنامة للأيام التي جرّها خلفه، وكانت لعبة التحدي قد أفردت أسلحتها كاملة في مواجهة رحيم، عبد الرحيم الحلبي بمواجهة عبد الرحيم الحلبي، عبد الرحيم الإرادة بمواجهة عبد الرحيم البيولوجيا.
ــ عاش الاسم تعيشي يا مصر... طريقك هو طريق النصر!
أنشد الأغنية بصوت مرتفع، مؤكداً أن جيل اللحظة جيل خائب، وحين ردّد هذه الأغنية كان متعمداً أن يختارها هي هي، أقله لأنها للمغني عبد الحليم حافظ الذي يتشارك معه اسمه الأول تقريباً، إضافة إلى كونها أغنية تنتمي إلى ثورة يوليو المصرية، ثورة جمال عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، فيما ثورة مصر اليوم، ثورة ميدان التحرير، لم تنتج مغنياً واحداً بحجم حليم، أنتجت مغني (موديل) يزعق: كلنا إيد واحدة مطالبنا واحدة.. حرية.
ــ طز.. وماذا بعد؟ لا إيقاع ولا صوت ولا كلمات.. قال رحيم وكأنه يخاطب آخر يقف بمواجهته، على خصومة معه، هو رحيم المندلق على غير جيله والذي يوشك أن يُقتل من الضجر، آخرٍ سيتفق معه لاحقاً على أن الثورات هي لعبة جنس وتسلية، وهذا لا يقلل من قيمة الثورات بقدر ما يوطد قيم التسلية والدوافع الجنسية باعتبارهما قيماً سيدوم الإنسان بديمومتهما.. لم لا؟
ــ ألا تصاحب تلك الرقصات اهتزازات أجساد هي نشوة ما؟ نشوة تخفي رغبة حبيسة في الوصول إلى الذروة؟ هكذا كان يقول لنفسه.
انتشر خبر اعتقال رحيم في البلاد بسرعة يصعب فهم كنهها، وإثر انتشار الخبر قدم إلى وادي الرف شابان وفتاة واحدة متجهين إلى دار رحيم الحلبي، وكانوا يسيرون بين بيوت تنشق مصاريع أبوابها، باباً إثر باب، متسائلة عما جاء يفعله هؤلاء الشباب الغرباء، وعند الاستدلال أخطأت البنت في استخدام اسمه وهي تسأل عن سكنه، فقد سألت أحد المزارعين: أين يكون منزل فهيم الحلبي؟
أخطاء كثيرة وقعت لهذا الاسم وصفاته ومؤهلاته في اليومين الفائتين، مرّة على صفحات الفيس بوك، حيث تم تداول الاسم على أنه رحيم عبدو الحلبي، وثانية عبر الاستدلال المباشر على أنه فهيم الحلبي، وكلا الخطأين لم يصل إلى مسامع كاراميلا التي لم تعرف شيئاً، لا عن اعتقال زوجها، ولا عن حملات التضامن معه، وكل ما كان عليها فعله فور قدوم الشباب الثلاثة هو دعوتهم إلى مائدتها.
كان العشاء واحدة من الدجاجات التي تتجول في فناء دار رحيم الريفية، قدمته كاراميلا بصمت إلى

الشباب الثلاثة وكانت تدقق بصمت أيضاً في أعناق الشابين الذكرين لترى ما إن كان ثمة تفاحة آدم على عنق أي منهما، فيما تعمّدت تجاهل البنت، مما جعل البنت عنزة جرباء تشارك الشباب مائدتهم.
واحدٌ من الشباب الذكور وقف متأملاً جدران بيت رحيم ليتوقف عند صورة جدارية ضخمة مطبوعة على هيئة بروشور بالأبيض والأسود، وكانت صورة توحي بأنها معدّة لإعلان عن عرض مسرحي، وفي الصورة عشرات الدجاجات الميتة المكوَمة بعضها فوق بعض، ورحيم يقف وكأنه شاهد على المجزرة.. دقق الشاب ملياً في الصورة دون أن يلتفت إلى أي من التذكارات الأخرى المثبتة على الحائط الأبيض، ثم التفت إلى كاراميلا متسائلاً:
ــ يبدو أن الحاج عبد الرحيم يهوى تربية الدجاج؟
بقدر ما استحمرت كاراميلا الشاب، بقدر ما بدت مجاملة، قالت له: انتبه يا ولدي.. أولاً الدجاج في الصور ميتٌ، وهذا يعني أن رحيم يهوى إماتة الدجاج لا تربيته، ثانياً رحيم يهوى اقتناء الماس والعاج والنساء لا تربية الدجاج، ثالثاً لو سمعك تخاطبه بـ: يا حاج، فبلا أدنى شك سيشويك ويأكلك.
ارتبك الشاب وارتسم على وجهه تعبيرٌ مزدوج: الاعتذار والاندهاش بآن، وكان على كاراميلا أن تتدارك الموقف.
ــ لا تنزعج يا بني، لست مضطراً إلى الاعتذار، لست وحدك من يخطئ في فهم رحيم أو حتى في نطق اسمه، إنه مصنوع كي نخطئ على الدوام في فهمه، هو كذلك.. إنه «نيقة عن الخليقة كلها»، ولنفس السبب تسنّى له أن يعيش ثمانين عاماً وعاماً، ولا بدَّ أن يعيش ثمانين أخرى ليبقى نيقة عن الخليقة!

***

على حين غرة، كان سيف قد عاد من سالونيكا متجاوزاً تعليمات جده السابقة، وها هو ذا يقف على ساق واحدة متكئاً على الجدار يتأمل جدته وضيوفها، كان صامتاً كعادته، مستطلعاً كما حاله على الدوام.
في هذه اللحظة بدت جدته شديدة التعقيد والالتباس، بدت امرأة لا يمكن فهمها، وزاد من غموض الجدة أنها سبق أن حكت للحفيد عن الاحتفالات الضخمة التي أقامتها على شرف رحيم وهي حفلات خاصة لمنحه أوسمة مختلفة، كانت تصنعها بأصابعها، ومن بينها وسام الشرف من الدرجة الأولى الذي يمنح في العادة لضباط الجيش السوري، ووسام جوقة الشرف الذي يمنح لفرسان الجيش الفرنسي، وكذلك وسام صليب الحرب الذي لم تكن كاراميلا تعرف يقيناً أياً من الجيوش يمنحه لأبطاله.
اليوم كان عليها أن تستعد لمنحه وساماً جديداً، يأخذ شكل عرف ديك وجناحه، ويتجاوز في قيمته الأوسمة الافتراضية التي تمنحها جدران الفيس بوك ومواقع الدردشة الإلكترونية، وكانت حائرة حقاً بالوسام وتسميته وشكله وحجمه وقيمته، وكذلك في نوع المدعوين إلى الاحتفال به، وإن كانت عازمة على أخذه من مفردات الديك.
ربما أوحت لها الحملة التضامنية مع اعتقال رحيم ورفع شعار الحرية له، بشيء ما يصلح ليتشكل على هيئة وسام، غير أن الحملة التضامنية تلك، لم تلق ترحيباً كافياً من نشطاء الفيس بوك، فالنشطاء أنفسهم كانوا يسوقون الشباب إلى الثورة باستخدام الرموز الشابة، كالأغنية الشابة، التيشرتات التي يرتديها الشباب، السراويل المنخفضة التي باتت موضة اليوم، القبضة المضمومة وقد تلونت بألوان مختلفة لقبضة واحدة امتدت من ربيع الصرب وسيلوفان ميلوزوفيتش إلى ربيع طهران وكانت مرسومة بالأخضر، ومن ثم إلى تونس ومصر واليمن وليبيا وها هي ذي اليوم تحط في المدن السورية وهوامشها، وكان «جين شارب» هو المنظر الأول لمجموعات نشر الديمقراطية في العالم، وكان قد نشر كرَّاسا تعليمياً يصلح ليكون دليل عمل للمجموعات الشابة في 37 بلداً من العالم شهدت أو ستشهد ثورات مماثلة.

جزء من ناشطي الفيس بوك، اقترحوا استبعاد الكهول ومختبري الماضي من ثورتهم، وجزء آخر لم يأبه للملاحظات التي تقول باستبعاد العجائز والكهول عن الثورة، هؤلاء صعّدوا حملة التضامن من أجل إطلاق سراح عبد الرحيم الحلبي، وكان عبد الرحيم خلال حملة التصعيد هذه سئماً من الملل الذي استوطنه خلال اليومين الفائتين وبلاط شقته ينزاح تحت قدمه، وكان ضجره قد دفعه إلى مغادرة شقته ليلاً ليتجه إلى ملهى الحصان الجامح (وكان شبه مهجور في هذه المرحلة)، معلقاً قبضة ضخمة في سلسلة مربوطة إلى رقبته، وفي طريقه إلى الملهى كان عازماً أن يلعب دوراً بالغ الخطورة والسريّة وهو القيام بوساطة ما بين واحد من قبضايات الملهى وراقصة تعرّي أوكرانية تعرضت إلى حرق مكوى شوّه المنطقة الواقعة فوق سرّتها.

البنت الأوكرانية المحروقة، كانت واقعياً قد تغاضت عن الحادث الذي تسبب لها بآلام مزمنة، وكانت تشدّ رحالها باتجاه العودة إلى موطنها بعد القلق الاقتصادي والأمني الذي أصاب سوريا، وبعد التوقعات القائلة بأن الهزّات ستُسقط البلاد في حرب أهلية ما بعد ثورتي مصر وتونس ومن ثم ليبيا والبحرين.

كان أصحاب الملاهي الليلية قد بدؤوا يقلّصون أعداد العاملات لديهم، وكذلك يحدّون من الإنفاق ويجهدون لنقل أموالهم إلى دول أكثر أماناً وضماناً لمدخراتهم المالية، أما الجمهور العادي من شُرّاء المتع الجنسية بات أكثر ترشيداً لدوافعه وأكثر احتساباً لنفقاتها، بينما بحث الوارثون ومحتكرو الثروات عن خرائط جديدة لرغباتهم، الأهم حسب قراءة رحيم هو ما قاله للبنت الأوكرانية، ومفاده أنه خلال الثورات الشعبية تنهض رغبات النساء وتخضرّ قبلاتهن الطويلة وتتوقد، ويصبحن أكثر جموحاً فيما تحجم الغرائز الذكورية وتنكفئ على نفسها، وكان يعلل استخلاصاته بالقول إن ذلك ناتج عن حس المسؤولية لدى الذكور، وهو حس منح الأمان للآخر: «وليس بوسعك أن تمنح الأمان لشريكك وأنت عار من ملابسك.. عليك أن تكون بكامل معدّاتك وعددك»، قال ذلك للبنت الأوكرانية ورجاها أن ترفع تنورتها إلى الأعلى، موضحاً لها أن السنتمترين من القماش اللذين يفصلان فخذيها عن ردفيها ليسا أكثر من سجن للجسد.

قال ذلك وتابع: أنتم في أوكرانيا أنجزتم ثورة الحريات من زمان.. نحن هنا بحاجة لإنجاز ثورة كهذه.. ثم أضاف: إن مجرد الفرجة على ردفيك ثورة.. بطنك ثورة.. سرّتك ثورة!

وكوّر قبضته تماماً ورفعها على الشاكلة التي تظهر فيها قبضات الثورات الديمقراطية التي اجتاحت عقد ما بعد سقوط الاتحاد السوفييتي والعقد اللاحق له.

حين استجابت البنت الأوكرانية ورفعت تنورتها كما شاء، أخذ أحمر شفاهها ورسم قبضته على مؤخرتها، بدت قبضة واثقة على مؤخرة واثقة، وبدا وهو يتنقل فوق مؤخرتها كأنما يتنقل في ميادين الانتفاضات مردداً نشيداً يحط من شأن القادة الأبديين ويستحث البشر الهامشيين على زرع أرواحهم بمشتقات المحرّضات الجنسية كي يجلبوا للتاريخ شيئاً من الأطفال، كما حاله هو طوال السنوات الثمانين التي عاشها، والتي حرّض فيها رغباته بما جعلها لا تموت إلا لتعود وتحيا.

لم يتابع رحيم حتى اللحظة حملة الشباب على صفحات الفيس بوك، ولم يعرف بعد، أنه أصبح رجلاً مثيراً للجدل وسط مجموع تقوّلات تولدها الرغبات بما يجعل كلاً من ناشطي الفيس بوك يصفه كما تقتضي شروط رغبة الناشر، لا كما تقتضي الأمانة العلمية، وعلى سبيل المثال فإن واحداً من الناشطين منح رحيم صفة أقدم سجين في التاريخ، وعلّق ثانٍ على الوصف بالقول إن رحيم هو: «مانديلا البلد»، وتدفقت بعد هذا الوصف تعليقات تمجّد التضحيات التي بذلها عبد الرحيم الحلبي، لترفع شأن الصمود الذي واجه فيه سجّانيه. كانت تعليقات المتصفحين والنشطاء تؤكد الأمانة القضائية لهذا الرجل، فيما اتجهت تعليقات أخرى لتتحدث عن إنجازاته الفقهية في مجال القانون الدولي.

ناشطو الفيس بوك كتبوا عمراً جديداً لرحيم، تاريخاً جديداً له، سيرة حياة لم يتعرف عليها.

كل التعليقات اتفقت على أن عبد الرحيم الحلبي زاهد بالحياة، وكل المختلفين المنتمين إلى عقائد متباينة،

توافقوا على الانشغال به، وأكثر التعليقات مجافاة للحقيقة ما كتبه واحد من نشطاء الفيس بوك وقد وصف فيه رحيم الحلبي ب-: «رجل التقوى».
بدا الأمر أكثر من محاولة ردم فجوة بين جيلين، كان استرسالاً في التسلية، أو لنقل كان تعويضاً عن الاتجاه الواحد الذي تدور به حوارات الفيس بوك ما بين جيل واسع من الشباب، منهم من يعني ما يفعل، ومنهم من ينساق وراء أهداف لا يعلمها، لتأخذ الحوارات والتعليقات على حكاية رحيم اتجاهاً آخر.
لنقُل غير ذلك.. لنقل كان أبطال من الشباب، يرغبون في تنويع بطولات الثورة بإضافة أبطال من جيل الأجداد إلى ثورتهم، وبدقة أكبر كان فريق صغير جداً من شباب الفيس بوك راغباً بخلق بطل، فالثورات في العادة تبحث عن أبطال وضحايا، عن قوة المثل ومعنى التضحية، ودون شك كانت مجموعة الفيس بوك هذه نابغة في هذا الخلق.
خبر اعتقال عبد الرحيم الحلبي، شغل أجهزة الاستخبارات إلى حد بعيد، فهذه الأجهزة كانت منشغلة بدورها بإطفاء أيّ من البطولات الفردية، كما باجتثاث أيّ من البطولات الجاذبة التي تغري الجمهور في أن يذهب إلى محاكاتها، ولكن الاتصالات ما بين فروع الاستخبارات بتخصصاتها المختلفة، لم تجد طريقاً واحداً يوصلها إلى التعرف في أيّ من هذه الفروع تم اعتقال عبد الرحيم الحلبي، وهذا ما أقلق الكثيرين من قادة الأجهزة الذين لا يطيق أحدهم الآخر، وما زالوا يخبئون تناقضاتهم تحت ستائر هشّة.
بات رحيم شاغلاً لقسم من الرأي العام، ولكنه لم يكن منشغلاً بالرأي العام، ذلك أنه لم يكن ليعرف شيئاً عن الرجل الذي خصصت مجموعات الفيس بوك لرصد سيرته، الحملة التي نظّمت بشأن اعتقاله، ولم يكن قد اطلع على الفيديو القصير المنشور على اليوتيوب والذي يصوّره وهو يهاجم رجال حفظ النظام مهتاجاً.
كان وهو يكشف عن إليتي البنت الأوكرانية راسماً فوق ردفيها بأحمر الشفاه قبضة مضمومة، كان يقول لها إنه لا يؤمن بالله في هذه اللحظة.. إنه يؤمن بالشعب، وكان يؤكد لها أن:
ــ الديكتاتوريات صناعات إلهية!
وحين أدرك أن لغته غير كافية لتفهم البنت كل التعقيدات السياسية التي تمر بها أنظمة الدولة الشمولية، كان عليه أن يبسّط لها الموضوع أكثر.
ــ تصوري لو لم تكن مؤخرتك بفلقتين؟ الفلقتان تعنيان التنوع.. التنوع والتكامل.. سلطة ومعارضة.. أنت تحكمني اليوم وأنا أحكمك غداً.. أنا الردف الأيمن وأنت الردف الأيسر، ومن سيذهب إلى الوسط فبرعاية الله.. فليذهب!
بهذا الشرح المُبسَط الذي بدا قاصراً عن إفهام البنت، حكى رحيم بدهشة موقفه من المستقبل السياسي لبلاده، واقترح أن يكون لها حزبان: حزب اليمين وحزب اليسار، حزبان يتنافسان على السلطة، واقترح أكثر من مشروع تسمية وهو يربت فوق ردفي البنت.
ــ هذا حزب الشعب، وهذا الحزب الوطني.. ربما نغيّر التسمية ونقول هذا الحزب الجمهوري وهذا الحزب الديمقراطي.
البنت الأوكرانية اعتادت رحيم منذ وطأت قدماها دمشق وتنقلت في أكثر من فندق، وكانت تعرفه باسمين اثنين: الآغا الأهمر، ورهيم، ولا بدَّ أن رحيم عانى بشدة من وطأة تعليمها نطق حرف الحاء الذي تنطقه على الدوام هاء.. كان يقول لها:
ــ كي ننطق الحاء علينا أن نضغط حنجرتنا.. وكي ننطق الهاء، فعلى الهواء أن يعبر بلعومنا بيسر.
ثم يقرّب لها الحالة أكثر ليقول لها: الحاء هي لهاث ما قبل الذروة.. الهاء هي لهاث نهاية الذروة.
وبعد شروحاته المستفيضة، كان يعطيها درساً عملياً في بلوغ الذروة، وكانت تستجيب له، مؤكدة أن ذكورته لا تموت حتى وهو في القبر.
ــ في القبر ستبقى هكذا منتصباً!

كان يعرف أنها تكذب، وكان حريصاً أن تكون فاتنته الكاذبة:
ــ يا ألله! كم الكذب نبيل وعظيم!! إنه العزاء الطيب لشقائنا!
بما لا يدع مجالاً للشك، كانت البنت الأوكرانية سعيدة على الدوام بلقاء رحيم، وكانت جاهزة باستمرار لإطلاق ضحكات محفّزة وهي تنظر إليه بالكثير من المحبة، ثم تلاعب الإوزة المدلاة تحت ذقنه وتداعب تفاحته البارزة من عنقه.
البنت الأوكرانية التي جاءت إلى دمشق للعمل وكسب النقود كانت مصابة بالسعار الجنسي الذي تخفيه وهي تضاجع أصحاب مرابط المواشي والمزارعين الذين يبيعونٍ محاصيلهم ويأتون إلى العاصمة، وكان زبائنها، كل زبائنها ودون أي استثناء، كانوا بالمطلق رجالاً يرتضون بنصف رغبتها، بل ويجدون نصفها أكثر قيمة بما لا يقاس من الرغبات الكاملة التي يأخذونها من زوجاتهم الحمقاوات اللواتي لفحتهن شمس الحصاد وشقاء المواسم والإرضاع المتصل لأطفال يولدون مطالع الفجر تاركين حبال سررهم في أوعية بلاستيكية.
ــ هذا العجوز الأزعر!
كانت تقول له، ثم تداعبه بالقول: أنت كذابة.. أنت زعرة!
تقول له كذّابة، لأنها على يقين بأن الانقلاب العسكري الذي حدث منتصف ستينيات القرن العشرين في سوريا لم يؤمّم قصوره الثلاثة التي يتحدث عنها، وأنه لا يمتلك أيًّا من المزارع في منطقة الصبّورة غربي دمشق، وأنه لم يصطد أيًّا من الظباء في البادية السورية.
ــ أنت كذابة.. آه وملعونة!
البنت الأوكرانية التي تسللت إلى فناءاته الخفيّة، وعدته بأن تساعده في البحث عن ذريّته في أوكرانيا وروسيا، وكان يقول لها:
ــ حبّلت أمهاتهم بأجنّة شيوعيين، وحين سأعثر عليهم سيكونون ليبراليين.. يا للمفارقة التاريخية!
لم تكن البنت الأوكرانية قد محت قبضته عن ردفيها وهي تسكسك ضحكاتها، كانت تلف رقبتها إلى الخلف متأملة قبضته وتقول:
ــ رهيم، ما اسم أولادك الأوكرانيين؟
أجابها بثقة ودون تردد: رهيم.
ــ كلهم؟
ــ نعم كلهم رهيم.. كل سلالتي تحمل اسمي!
ــ أنت تعرف أين تقيم أمهاتهم؟
ــ لا.. ولكنني أمشي وراء دمي.. دمي يدلني على سلالتي!

خثرات دماء رحيم

ــ هذا الرجل لا يموت! قالت كاراميلا لحفيدها موطّدة الثقة بأن الجد رحيم سيعود إليها هذا المساء، هو ذاهب ليرهن بيتنا ومن ثم سيعود.. ربما يبيعه إن حصل على مبلغ طيب.. قال لي إن سوق العقارات على وشك الانهيار ما بعد الاضطرابات التي حلّت بالبلاد، ولكن إذا ما توفرت شروط البيع العادل، فإن جدك سيعود بمحفظة مالية تسمح لنا بأن نتوسع في هذه المزرعة، وبأن نراعيٍ في تطويرها وجود الحيوانات الطيّبة كالغزلان والديك الرومي والدجاج الهندي، وكذلك سنربي خيولاً.. هو وعدني بذلك، إنه يهوى ركوب الخيل كما تعلم.

ــ الخيل؟ هل هو فارس حقاً يا جدتي؟

كتمت الجدة ضحكتها، وبإلحاح يحضها على الخيانة الزوجية، كرر الحفيد سؤاله بهدوء هذه المرة: هل هو فارس يا جدتي؟

حضنت الجدة حفيدها، وأجابت: مرة واحدة صعد فوق ظهر حصان، وما إن خطا الحصان خطوته الأولى حتى انهار جدك كما جبل ثلج من فوق ظهر الحصان.

ــ وبعدها؟ سأل سيف.

ــ بعدها؟ أزاحت الجدة حفيدها، وأصغت إلى صمته قليلاً، ثم: سنبدأ معاً حياةً جديدة لا مكان فيها للمصادفة.

كان حفيدها وهو يلملّم آمالها، يجاريها، كما درج في العادة، ويدفعها إلى المزيد من الرغبات، غير أنه لم يكن ليستطيع مداراة سؤاله عن الزمن.. الوقت.. الشيخوخة.. سألها: ماذا سيكون مصير غزلاننا وخيولنا إن مات جدي؟

ــ أكرر.. جدك لا يموت!! قالتها بالكثير من الجدية والنزق والثقة اللانهائية، ثم امتدت يدها إلى صندوقها القديم.

أخرجت كاراميلا حقيبة من الصور الشعاعية، صور تلألأت فيها عظام الجد وشرايينه. كانت عظامه تستثير الكثير من الضحك ومن التأمل معاً.. قامة منتصبة تماماً.. شرايين ترسم خرائط جسد مشكلة أودية وأنهاراً وبحيرات ربما تأخذ شكل المستنقعات، ثم أفردت تقريراً طبياً جاء فيه:

ــ عصائد جدارية على حساب الحرقفي.

ــ غياب ارتسام الحرقفي الباطن.

ــ على امتداد الفخذ يشاهد توسع ممتلئ بخثرات في لمعته ولمعة القسم القريب من المئبضي بقطر أقصاه حوالي 30 مم وعلى امتداد حوالي 165 مم.

رمى الحفيد التقارير والصور، ثم سأل:

ــ ما كل هذا يا جدتي؟

ــ إنها إشارات كاذبة وقديمة عن موت جدك.. جدك الذي لا يموت.

ــ شرايينه ممتلئة بالخثرات القاتلة.

ــ ما الذي تقوله؟ يبدو أنك تفهم بالطبابة!

كانت كاراميلا ترتدي فستاناً مورَّدا بزهر الرمان، وعلى رأسها قبعة من فرو الخلد مرفوعة من الجانب، ودون ريب فكّر سيف بأن جدته سيئة الملبس إلى حد بعيد، ولعلها لم تنم إلا قليلاً.

فتحت كاراميلا عينيها دائرتين خفيفتين، ثم تذكّرت زرقة السماء الشاحبة، والتفتت إلى حفيدها لتقول له:

ـ هل لديك أية فكرة عن موسم هجرة طيور الدرّج؟
بدا سؤالها مفاجئاً، وكان سيف على وشك أن يداري دهشته بإجابة لم تكن أقل إدهاشاً من سؤالها، قال لها، وبشيء من الرصانة التي تربك الجدة:
ـ إن هذه أيام الأليسون، الطائر الذي يبني عشه في تجاويف الموج، في الأيام التي تتلو عيد الميلاد.
ـ اسكت، إلى ماذا تشير بإجابتك هذه؟ ثم وضعت سبابتها على فم حفيدها، ليقبّل الحفيد سبابة جدته.
هرعت الجدة خارج الغرفة بعد أن أحكمت إغلاق الصندوق بحثاً عن صوت السيارة القادم من البعيد، وحين دققت النظر، لم تعثر على سيارة رحيم. كانت السيارة القادمة من مطلع القرية تعاني ارتجاجات في محركها مما يجعل صوتها أقرب إلى صوت سيارة رحيم، وكان الحفيد يراقب جدته وهي تعود متوحّدة وكأنها حبلى تتوجس خطواتها وهي تشق طريقها في الخضرة الخرافية بين فراشات ملوّنة وأضواء ذهبية تلتمع وسط غيوم سمائها.
ـ سيعود! قالت كارا ميلا لحفيدها، سيعود يا سيف!
خلافاً لكل المرات السابقة من غياب رحيم، كان لغيابه هذه المرة رؤى متبدّلة وخاطفة:
ـ قلبي يقفز من بين أضلاعي.. قالت كارا ميلا لحفيدها.
وتابعت وكأنها تحاكي نفسها:
ـ لا أدري ما الذي يجعل قلبي يتصرف على هذا النحو!
قال لها سيف:
ـ اقرئي سورة، ثم صمت وكأنه يحاول استحضار ذاكرته، ثم قال: سورة الكنبة.
ـ تقصد سورة الكرسي؟ لا.. لن أقرأها.
ـ لم لا يا جدتي؟
ـ لأنني لم أحفظها.. بل لا أعرف ما الذي تعنيه سورة الكرسي.
ـ أنت مثل جدي ملحدة يا جدتي؟
ـ لم أفكر بسؤال كهذا.
ـ ألم تسألي إن كان الله موجوداً؟
ـ ما الذي سيتغير إن كان موجوداً أم غائباً؟!
ـ ما الذي تقولينه؟
ـ أقول ما الذي سيتغير إن كان موجوداً أم غائباً، في كلا الحالين لدي من الأسباب ما يجعله يشفق علي.
ـ وكأنك على ثقة مما تقولين؟
ـ بالتأكيد.. إن امرأة تعيش إلى جانب جدك كل هذه السنوات فما من شك بأن الله سيكون مديناً لها.
ـ لم أفهم!
ـ كل ما في الأمر أن جحيم جدك يتجاوز جحيم الله.
حتى اللحظة، كان سيف، الولد الجامح، قد قرر البحث عن جده.. بحثاً يبدأ من السؤال، وكان يعلم في قرارة نفسه أن جده المهبول قد قرر إنشاء سلالة بشرية تنفلت من إرادة سكان هذه الكرة الأرضية وتؤسس بدورها لجنس من الكائنات الأخرى، وستعمّر هذه السلالة كوكباً آخر فوق هذا الكوكب.
ـ كوكبنا مجرد بحصة تدور في مجرة مزروعة في حقل مغناطيسي، ونحن نركب فوق ظهر هذه البحصة، متشبثين بالجاذبية الأرضية.
ـ نسخة عن جدك.. ها أنت تكرر كلماته!! قالت كارا ميلا لسيف.
كانت هذه نظرية ما بعد النسبية، وكان رحيم يؤكد للقرويين البلهاء الواقفين إلى جانبه وهو يصحح قبّعته القش ويداعب سلسباله الذهبي:
ـ كلكم ستغادرون هذه البحصة، وستبقى كارا ميلا إلى جانبي فيها وهي تدور بنا، ونحن سنراعي أن لا

ندبك كثيراً فوق ظهرها!
كان يضيف مؤكداً:
ــ من حسنات القدر أن زوجتي خفيفة الوزن، ولا بدَّ أن خطوات كاراميلا لن تكسر قشرة هذه البحصة وهي تروح وتؤوب في حديقة بيتنا.
يمكن لجدته وحدها أن تقود الكوكب الجديد. كانت هذه قناعة لا تتزعزع لدى الحفيد سيف، ولهذا الهدف على وجه الدقة عاد من اليونان، وكان يعاني القليل من فهم اللغة العربية، وقد تجاوز هذا الاختلال ليتولى بنفسه تعليم نفسه هذه اللغة الصعبة التي كانت في ذاكرته مجرد نثاثير لغة استجلبها من والده سامي. كان سيف قد ارتاد إدراك اللغة الجديدة، وكانت همومه منحصرة في أمرين اثنين: موسيقا الروك وجده رحيم.
بداية الدخول إلى ملاعب الجد، ذهب سيف إلى اختراق جلد جدته.. نعم، جلدها، فقد كانت الجدة قد زرعت رحيم في أضلاعها، وكانت كلما أوشك على اختراق جلدها والخروج منه تكبحه لتشده ثانية إلى ما بين أضلاعها.
حين توطّد وجوده داخلها، باتت تلامسه لتتعرف على نفسها، وسرعان ما كانا يتعانقان بسرية لا يبوح أحدهما للآخر بها، يتعانقان بصمت، وكانت أصوات جسديهما تهمس همساً.
ــ جدتي!! قال سيف.
التفتت الجدة كمن أفاق من غيبوبة: ماذا يا سيف؟
ــ جدتي..
لامست كاراميلا شعر حفيدها، ثم قالت له:
ــ أنت سلالتنا.. ألن نزوجك لنتكاثر وتبني كوكب جدك؟
ــ جدتي.. أليس والدي من سلالتك؟
ــ لا.. إنه كلب! قالت كاراميلا، وأضافت: والدك كان يتمنى الموت لجدك.
ــ ما الذي تقولينه؟
ــ هذا ما كان عليه الحال.
ــ ولماذا يتمنى الموت لجدي؟
ــ كل الذكور يتمنون موت الآباء.
ــ من قال لك ذلك؟
ــ جدك.
ــ وما الذي جعل جدي يعتقد بهذا؟
ــ جدك يعرف بكل شيء.. ألا تعلم بأنه عالم؟!
ابتسامة سيف الطيبة جعلت الجدة تتقلب من الضحك وهي تكرر: جدك عالم... ثم تقول: هل رأيته وهو يقلّب بطن البعوضة ليرسم عليه وشماً يحمل اسمه؟ لم يدع جدك بعوضة إلا ورسم وشمه فوق بطنها.
مع أنه منحها المبرر الأقوى لتلامس قيمة وجودها، حافظت الجدة على لجم عواطفها إزاء حفيدها، ولم تكن لتعلن أن هذا الحفيد سيكون أشبه بحلول الآلهة ضيوفاً عليها.
لم تفعل ذلك، لأنها اصطدمت فيما سبق بغروب آلهتها، حين سافر وحيدها سامي تاركاً إيّاها وحيدة مع رجل عجوز عابث قلّما دخل فراشها خالعاً حذاءه المدبب من قدمه.
كان على كاراميلا مداراة شهوات إعلان عواطفها، وكان سيف لا يعير أدنى التفاتة ولا يعلن أيّة ملامة لسلوك الجدة الذي لا بدَّ أن يبدو غامضاً، بالقياس إلى سلوك بقية الجدات اللواتي يدلقن بصاقهن وقبلهن فوق وجوه أحفادهن وحفيداتهن. كان سيف حريصاً على رسم جدته، ثم إعادة رسمها في مخيلته وكأنه ما زال في ريف سالونيكا، حيث الجدات اليونانيات يجلسن فوق الكراسي المقشّشة الواطئة ويراقبن

السياح الذين يعبرون إلى جانبهن وهم يلقون بالتحيات الضاحكة في وجوه العجائز المتحلقات فوق الطرق الترابية.. سالونيكا حيث طفولة سيف ما قبل الهجرة الثانية لوالديه التحاقاً بعائلة أمه الألمانية.
ــ كالميرا.
ثم يرددن كالميرا بابتسامات ساذجة عذبة، هي الابتسامات ذاتها التي يهدينها لرجالهن العجائز الذين يقطعون اللحظة متجهين صوب مقابرهم، التي يدفعون من أجل رخامها بسخاء مبالغ به.
كان سيف وهو يصغي إلى صفات جده الذي تباركت مشيئته، يعلم تمام العلم، أن الإله صار إلهاً لأن ثمة بشر يبحثون عن تأليهه، ولأن زوجة الله بحاجة إلى إله يؤنس وحدتها بما يعوّض عن فائض الأيام الضائعة من عمرها.
حين وقعت عيناه على الكرامافون القديم المستند إلى مصطبة خشبية تستند بدورها إلى الحائط الأبيض، عثر على تلك الأسطوانة التي اختلسها جده من أبيه في زيارة غير مرحّب بها من قبل الابن، ومشروطة بصلافة لا حدود لها من قبل الجد، وكانت الأسطوانة هي «الأوديسا»، تلك الأسطورة الإغريقية التي أعادت إيرين باباس إحياءها، لتسحب الأسطورة من سيوف الإغريق وعرباتهم المذهبة إلى اللحظة الراهنة، حين أخذت الحروب أشكالاً جديدة، أشكالاً ربما باتت الأسلحة الأكثر فتكاً فيها، هي الواقيات الذكرية وحبوب منع الحمل، إضافة إلى أسلحة اللغة.
كان سيف، وهذا ما لاحظته الجدة ولم ترحب به، بعضلات مفتولة، تبرز الكثير من الأبعاد التشريحية لجسده الشاب الفتي المدرب المنسوج بما لا يسمح بأية اختلالات يمكن ملاحظتها، وكان أنفه منكسراً وكانت له تفاحة جده ذاتها.. لا.. كان الجد بلحمه وعظمه وتفاحة آدم، بفارق أن الأول عابث بمسحة همجية والثاني همجي بمسحة مهذبة.
ــ يا ويلي!! قالت الجدة، ولم تتابع النظر إلى حفيدها.
تمتمت بذلك واتجهت إلى بندقية الصيد المركونة في زاوية الغرفة لتفرغها من طلقاتها خوفاً من أن يعبث سيف بما في بندقية جده من رصيد لم يتسنّ له أن يفجّره في طيور الدرّج والحجل، أو في أجساد الخنازير البرية التي تتجول ما بين الجزء المحتل من أراضي الجولان وبين الجزء السوري، متجاوزة الألغام المزروعة بعبث الأيادي القاتلة.
حين اتجه سيف إلى التلفاز ليفتحه، صرخت الجدة:
ــ دعه مقفلاً!
لم يستطع سيف على ما فيه من ذكاء واتقاد ذهني، أن يتفهم سبباً لردة فعل جدته، وإن كان قد توقع أن الأمر بمجمله لا يعدو أن يكون مرتبطاً بظهور مذيعة من التلفزيون الوطني، ستقلّب ماضياً قريباً على صلة بالجدة، وكان قد تراءى للحفيد أن واحدة من كل مذيعتين حيتين لا بدَّ وأنها دخلت ماخور جده، وكان على شبه يقين من أن كل المذيعات الميتات قد فعلن ذلك قبل انتقالهن من الدار الفانية إلى الدار الباقية.
قال لها:
ــ جدتي، إذا كان مذيعاً نستمع إلى نشرة الأخبار، وإن كانت مذيعة نغلق ونختار محطة أخرى.
ــ يا إلهي! صاحت الجدة حين ظهرت صورة رجال يدوسون رجالاً في مكان ما من سوريا، وبعد ذلك جدّدت رجاءاتها بأن يغلق سيف التلفاز أو ينتقل إلى محطة أخرى.
ــ جدتي، أتفهمين ما الذي يحدث لسوريا اليوم؟
ــ لا.. لا أفهم، ولكن جدك كان قد تنبّأ بما يحدث قبل أن يحدث.
ــ ما الذي قاله جدي؟
ــ قال بأن الملل وحده سببٌ كافٍ لإيقاد نيران الحروب في كل مكان من هذا العالم.
ــ وهل كان السوريون ملولين حتى اشتعلت عندهم؟

ــ بل قل: وهل كنا ملولين حتى اشتعلت عندنا.. ألستَ أنتَ سورياً؟
ــ أنا يوناني ــ ألماني يا جدتي.
ــ إذن ما علاقتك بما يحصل في سوريا؟
ــ قساة تفوح منهم رائحة الدم! قال سيف لجدته، وبعد ذلك خرج من غرفة الجدة باتجاه الغرفة المخصّصة له ولأغراضه، وهي غرفة بنيت منذ يوم ولادته، وعلى بابها كان الجد قد كتب بلغات ثلاث (اليونانية والألمانية والعربية)، كتب: أهلاً سيف!
لم تكن الألعاب القديمة المكوّمة في غرفة سيف (وهي إرث من طفولته) قد فقدت قدرتها على التسلية بعد، فلوحات البازل متفاوتة الأحجام، كانت قادرة حتى اللحظة على إعطاء الوقت قيمة ما يمكن ذكرها، هي لوحات تحوي في معظمها بيوت ريفية بسطح قرميدي من تلك البيوت التي يرسمها أي من الأطفال فور إمساكه بالقلم، بيت قرميدي.. شجرة أمام البيت.. خط الأفق، وإذا حدثت زيادات فسنجد إلى جانب البيت كلباً وحماراً يرعى.
قطع البازل التي بعثرها سيف كانت كافية لإغراقه في الوقت حتى فجر اليوم التالي، فجر صامت لم يقطع صمته سوى همهمات الجدة وهي تفتح باب غرفته متسللة إليها وبيدها فخّارة من حليب الماعز، فيما تحمل بيدها الأخرى مكنسة قطفت عيدانها من حقلة بيتهم ثم جمعتها لتستخدمها في كنس فسحة الدار التي تجمع إضافة إلى كراسي الخشب، أرجوحة هي المكان الأكثر اشتهاءً لرحيم الذي يمارس فوق اهتزازاتها قيلولته.
تقدمت كاراميلا بهدوء الأفعى من الأرجوحة وأطلقتها، وراحت تغمغم بصوت واضح مسموع:
ــ أأنت سيف أم رحيم؟ لا أحب شيئاً في الدنيا كما أحبكما.. سفلة!

– 13 –

انتفاضات القبور

رحيم يعرف أم الفتى طالب كلية طب الأسنان، هي التي تسكن في الجانب الآخر من القرية بموازاة ضريح الشيخ أبو بكر الرفاعي، كان اسمها حنين، وكان الاسم يبعث رحيم على السخرية حين تعرّف إليها أول مرة، وهو يرتدي جزمة فارس وبنطالاً بجيبين جانبيين ضخمين منتفخين.. سألها: حنين لمن؟ تلعثمت البنت وبدا الخجل وقد طفح احمراراً فوق وجهها.
ــ إذا كنت لا تعرفين حنيناً لمن، فلا شك بأنك ستكونين حنيناً لي!
لم تمانعه كما يحدث حين يقتحم رجلاً امرأة، فقد استسلمت له على عجل، وكانت حنين في موعد الخصب وكانت تحمل كمًّا كبيراً من الحطب فوق كتفيها، حين أنزل الحطب عنها وأدار ظهرها لصدره.
في اليوم ذاته، كان رحيم قد جاء من دمشق إلى قريته، ليمضي إجازته بين صائدي الخنازير البريّة الشرسة.
ــ الخنازير، آه من الخنازير! قال لحنين، ثم أضاف: ليس ثمة مخلوق في هذه الأرض أشد ذكاء من هذا الكائن، وليس ثمة من هو أكثر احتيالاً منه.
ــ وهل يمكن لمخلوق أن يكون أكثر احتيالاً منك أنت؟
ــ ربما، مع ذلك فالخنازير ستعلمنا الكثير مما نجهل.
ــ وهل تأكل لحم الخنزير وأنت مسلم؟
ــ ومن قال لك إنني مسلم؟
ــ ماذا أنت؟
ــ لم أقرر بعد، قد أغدو هندوسياً أو بوذياً وربما وثنياً.
من الصعب على حنين أن تعرف شيئاً مما يقوله، فالبديهي بالنسبة إليها أن يكون الإنسان مسلماً، والبديهي الذي يقع في الدرجة الثانية من سلم البديهيات أن يكون مسيحياً، أما أن يكون يهودياً فهذا عيب خلقي ووجودي ستواجهه جيوشنا بسحقه، فما معنى بوذي أو هندوسي أو وثني؟
أجابها رحيم باسترسال وجدية بالغين:
ــ هندوسي يعني هندي.. أتعرفينهم؟ إنهم يقدسون البقر، أما بوذي فمعناه أنه من بوز، وبوز هذه هي مقدمة أحلى ما فيك، أما وثني فمعناه عبدة الـ... وقبل أن يكمل لامس أسفل بطنها.
حنين هذه هي التي أنجبت جواد طالب طب الأسنان، أنجبته واقفة وهي تنظف إسطبل خيل تعود ملكيته لمالك جاء من دمشق وعمل على تربية الخيول العربية لتدخل في مزادات دول الخليج العربي وبلدان غربية، وفي هذا الإسطبل نما جواد وكبر وصار يمسك الحصان من ذيله، ثم ما لبث أن بات يُطعم الخيول حبات السكاكر والراحة الدرعاوية، وتعلم في مدرسة القرية، ونجح في الثانوية العامة محققاً معجزة في التحصيل العلمي، فقد نال منحة دراسية من أكثر من جامعة من الجامعات العالمية كفاءة وثقة، ولكنه فضّل البقاء لدراسة طب الأسنان في جامعة دمشق، كي يبقى إلى جانب أمّه المترملة التي حبلت به واقفة، كما خلفته واقفة، لتسجله باسم رجل يحتضر، عملت على خدمته مقابل أن يتزوج بها.
ــ أيها السيد، هل تعرف السيد جواد؟ سأل رحيم واحداً من حرّاس السكن الجامعي.

****

معمارية السكن الجامعي هي أشبه بثكنة عسكرية، ولكن انتفاضات الطلبة كان يمكن أن تكون أكثر إيذاءً

للسلطات من انتفاضات الهوامش التي وقعت في محيط العاصمة، ومع تفاقم القلق الأمني، لم يكن بمقدور الحارس إلا أن يتساءل: جواد ماذا؟
ــ جواد.. إنه يشبهني.. له أنفي ذاته.
ــ يخلق من الشبه أربعين يا عم!
ــ أوه، وهل ثمة أربعون ابناً لي هنا في هذا السكن الطلابي؟
بدت الحيرة والقلق على الحارس، غير أنه ما لبث أن استسلم مصغياً إلى ثرثرات رحيم التي لا بدَّ أن تبدو تخريفات رجل عجوز، رجل يبحث عن إضاعة الوقت في وقت هو الأكثر قسوة وغموضاً في حياة البلاد.
ــ من الصعب معرفة مكانه يا عم.. ماذا يدرس؟
ــ إنه يدرس طب الأسنان، هو أحب هذه المهنة لأن مريض الأسنان يفتح فمه، أي نعم ولا ينطق.. أنفه مكسور كما أنفي.. دقق في أنفي تعرفه.. لا بدَّ أنك إن دققت جيداً فستوصلني إليه.. لن تجد أنفاً كما أنفي.. ناتئاً ومكسوراً وأعوج.. أنفه طبق الأصل عن أنفي.
كان حارس السكن الطلابي، يحمل عبء سنوات عمره، ولم تكن تلك الغلطة غلطته، ولم يكن بقادر على إخفاء دمار جلد وجهه، وكان في هذا اليوم على وجه التحديد، أكثر حزناً من أي من أيام سنواته الأربعين حزناً وكمداً، كانت ملامحه تنتقم من رضوخه لأوامر السلطات الأمنية التي تطالبه بمراقبة الطلبة ساكني السكن الجامعي، وكان عليه أن يفتّش حقائب البنات اللواتي يدخلن بوابة المدينة، لينثر محتويات حقائبهن فوق دفة هي الأشبه بمحفة الموتى: مساحيق ومراهم للتطرية، ودبابيس شعر، وأقلام تحديد شفاه وأقلام حمرة.
وفي الحقيبة التي نثر محتوياتها أمام رحيم كانت صاحبة الحقيبة، وهي في مطلع العشرين من العمر، قد أضافت لؤلؤتين حقيقيتين ادخرتهما لأذنيها، وحذاءً مخصصاً لراقصات الباليه، وجهاز هاتف محمول، وكان صوتها المبحوح يمنحها المزيد من العجرفة، وقد نالت عجرفتها من حارس السكن الجامعي هذا.
بنات السكن الجامعي اللواتي تحلّقن حول رحيم، كن منشغلات كما بقية جيلهن بالتواصل على الفيس بوك، وكانت صاحبة الحقيبة المنثورة فوق المحفة، قد تيقنت من أن هذا الرجل العجوز، هو ذاك الرجل الذي يطالب ناشطو الفيس بوك المعارضون بالإفراج عنه، تقدّمت البنت من رحيم وهمست له:
ــ الحمد لله على السلامة!! الأوغاد أفرجوا عنك؟
ظل عينيها تحت الأهداب الراقصة، اجتاح رحيم كما لو أنه لم يعرف أنثى واحدة من قبل، وكمن يحاول مقاومة رضوخه، أجابها بعجرفة أيضاً: أنا.. أنا هو.
ثم قال بصوت مسموع معتقداً أنه يخاطب نفسه:
ــ أي صوت مبحوح هذا؟
فجأة أحس رحيم بذراعين حوله، ذراعين عاريتين حول كتفيه، وتراءى له قرع طبول تحيط به، كانت له كالصحراء، وكما عزلة الحب، وحين أرخى ذراعيه عن البنت، اكتشف أنه أرخاهما بأسف.
لم يفهم رحيم ما الذي تهدف إليه ضمّة البنت وكلامها، غير أنه انشغل بالتدقيق في ملامح وجهها، وجه شبه هندي، ملامح ليس من اليسير العثور عليها في منطقة شرق المتوسط، وفوق كل هذا كان للبنت جسد مكتنز بالغ الحيوية، جسد شهواني متلهف.
قال لها:
ــ هل أنت طالبة جامعية؟
ــ نعم يا جدي! أجابته.
ــ وهل تنتظم الدراسة حين تكونين في الدرس؟
ــ ولم لا؟

ــ أظن أن الطلبة سيكونون لاهين عن واجباتهم.
ــ لم أفهم.
ــ وإذا لم يكونوا كذلك فبلا شك لا يستحقونك!
بات من الواضح أن البنت تفهّمت ما يقوله رحيم وما يهدف إليه، ومن المحتمل أنها استمتعت بهذا الإطراء الجنسي المضمر الذي يمنحه لها رجل عجوز.
ــ تذكرني بجدي.. إنه رجل طيب مثلك.
ثمة انكسار أحاط بلحظة رحيم، صار رحيم أكثر شحوباً من ميت، وأخذت شفته السفلى بالاهتزاز تماماً كما كان يحدث له على الدوام حين يسمع ما لا يود سماعه.
ــ عذراً يا جدي.. هل جرحت مشاعرك؟
ــ لا.. ولكنني لا أشبه جدك.. لا أحد يشبهني في هذه الكرة الأرضية سوى أبنائي الذين خلفتهم، وكذلك أحفادي وكلهم من الذكور.
ــ أعتذر إن كنت سببت لك جرحاً ما.
ــ ولم الاعتذار وبوسعك مداواة جراحي؟
ــ كيف؟
ــ بأن تتقبلي دعوتي إلى فنجان شاي.. بيرة إن أردت.. قهوة لا يهم.. اختاري أنت!
اتخذ حلم يقظته مساراً مؤلماً، ألماً فيزيولوجياً أحاط بمفاصله وعظامه وقلبه، يجب ألا أفكر فيها، خاطب نفسه، ثم صحّح لنفسه بالقول: لن تضيرها قصة فاجعة.
لو كان شخصاً كسائر الناس، لظلّ إلى جانب كاراميلا، كان يمضي على وجهه من ساحة باب توما متجهاً إلى الزقاق المبلّط الذي سيقوده إلى باب شرقي، وكانت الطرقات تعجّ بالنساء اللواتي لا يعرفهن، كما لو كانت هذه المنطقة انتزعت من مشارف الحرب الأهلية، لتكون منطقة فيها الكثير من الشباب المتسكع، الذين يخبطون بأرجلهم ويغنون صراخاً ويكسرون صحون مطاعم الوجبات السريعة، وفي زاوية من زوايا الشارع المبلط ثمة بنت تبيع أطواق الياسمين مرددة: ياسمين لحبيبتك!
من باب توما إلى باب شرقي، مشى وراء سيدة تهز ردفيها، أو هكذا ظن أن ردفيها يهتزان، وكان يقول لنفسه: ما أجمل هذا الحظ!
ــ ما كان لك أن تتنبه؟
صرخ به رجل شاب، وما كان لرحيم سوى أن يعتذر وقد دفع هذا الرجل الشاب إلى حافة الرصيف، وكان أن أسقط عقد الياسمين من يده، وانحنى محاولاً لملمة حبات الياسمين البيضاء وقد ذبلت فور ارتطامها بأرض الشارع، لكن هذه المدينة الضاجة، عادت ثانية إلى عزلتها، ولولا السيدة التي ما زالت تسير أمامه بردفيها المهتزين، لكان عليه الإقرار بأنه يعيش في بلاد ستمزقها الحرب الأهلية، وقد باتت تعلن احتمالات سوء تفاهم أزلي بين سكان ينتمون إلى مختلف المذاهب والأديان.
الطلبة في مقهى عشتار الذين كانوا يلقون بسيقانهم أمامهم، كانوا مراقبين بكثير من الدقة من قبل ندل المقهى المتطوعين لخدمة الاستخبارات العامة، مع ذلك حدث أن انكسرت جميع التخوفات ما بين شهر واحد من انطلاقة الاحتجاجات والشهور اللاحقة، بات الحديث العلني عن إسقاط النظام حديثاً غير مكلف كما الحال في الماضي، وبات الاعتقال السياسي محدود المدة بما لا يتجاوز الشهر في حدوده القصوى، وكانت السلطات قد أضعفت في العاصمة، كما حدث فراغ للسلطة في طول أرياف البلاد وعرضها، واتخذت السلطات خيار قتل معارضيها بديلاً عن الاعتقالات الطويلة، وقد كان القتل خيارها على مدار عقود سابقة.
عيون الاستخبارات تراخت عن النظر إلى الشارع المتحاور أو إلى مقاهي الطلبة والمثقفين، فيما تحفّزت العيون ذاتها إلى الشوارع المتظاهرة في أطراف العاصمة، حيث يسقط يومياً ما بين قتيل في الحد الأدنى

وثلاثين قتيلا في الحدود القصوى، ثم ارتفعت الأعداد إلى ما يتجاوز المئة ما بعد ظهور السلاح بيد فصائل احتكمت إلى السلاح في مواجهة السلطة، وكانت المحطات التلفزيونية تعمل على تحشيد الرأي العام بمواجهة السلطات، وتحديداً محطات الجزيرة والعربية وفرانس 24، إضافة إلى ال- BBC وكذلك محطة المستقبل اللبنانية.
أجل، نحو الحرب المسلحة اتجهت البلاد، والشباب المتجمهرون في مقهى عشتار وأقفاص الطيور معلّقة فوق رؤوسهم، كانوا يتحدثون عن ثورة القِيَمْ.. هكذا أسموها.. قال الأكثر شغباً من بينهم إنه ليس بحاجة إلى عمل ولا إلى ضمان صحي ولا إلى تعليم مجاني.. قال إنه بحاجة إلى الكرامة والحرية، والتفت إلى رحيم الذي تظلل بدوره بالبنت الهندية.. قال له: ما رأيك يا جدي؟
أجابه رحيم متلعثماً:
ــ رأيي أن تُطلقوا الطيور من هذه الأقفاص وتحرروها! وأشار رحيم إلى أقفاص الطيور الثلاثة المعلّقة فوق رؤوس الشباب.
بدت الطيور وهي تخرج من أقفاصها عاجزة عن الطيران، ذلك أن أوزانها تضاعفت عن أوزانها الطبيعية كناتج عن انعدام الحركة ووفرة الطعام، كانت تطير قليلاً ثم تهبط فوق رؤوس الشباب، وكان رحيم يدفعها بكلتا راحتيه إلى الأعلى لتطير ثانية ثم تهبط، ثم تطير وتتدحرج أرضاً.
حدثت فوضى، ربما كانت الفوضى الأولى التي يواجهها مقهى عشتار، فقد صعد الشباب فوق الكراسي وأنزلوا الأقفاص، ثم، وكأنهم في حفل زفاف، أطلقوا الطيور في فضاءات ليل المكان الذي كشفته إنارة ومصابيح الشارع والكنيسة المواجهة لكافيتيريا عشتار.
حدث ذلك في تلك الليلة العلامة من تاريخ العاصمة، وبعده تداعى الشباب إلى محاولات الطيران وهم يرفرفون بأذرعهم في الهواء، وحين باتت الحالة أشبه بالتظاهرة طوّق الجميع بعناصر حفظ النظام الذين وصلوا كما الصاعقة إلى المكان.
خفيفاً كان رحيم فوق أكتاف الشباب وهم يهتفون، كان ينشد ويلوح بذراعيه الطويلين، وسط هتافات تردِّد اسمه، كان هو يهتف باسمه، وكان الشباب يرددون اسمه.. كان يقول:
ــ يا رحيم ويا رحيم.. أنت وحدك الزعيم!
لا أحد من الطلبة كان يعرف أن المقصود برحيم هنا هو رحيم الحلبي، الإسلاميون من الشباب الذين انضموا إلى التظاهرة هتفوا لرحيم، كواحدٍ من أسماء الله الحسنى، وكان الشباب العلمانيون يجاملون الرجل العجوز معتقدين أنه من أهل الله، وكانت البنت الهندية وحدها تعرف لعبة الرجل الخبيث وقد قاد المدينة للهتاف بحياته.
كل المتظاهرين تحوّلوا إلى مصورين، صورهم الملتقطة بواسطة الهواتف المحمولة كانت أشد تأثيراً بما لا يقاس من أشرطة الكاميرات الاحترافية، كانت كذلك بسب الغموض الذي تحمله الأشرطة المصورة بالهواتف المحمولة، غموض يجعل المشاهد شريكاً في الحدث ومعيداً لإنتاجه من جديد، وكانت هي التقنية المعمول بها في المحطات الوازنة مثل محطة الجزيرة، لقطات يكتنفها الكثير من الغموض بما يسمح للخيال أن يُظهّر اللقطة كما يشاء وبالطريقة التي يشاءها. بدا رحيم في لقطات الهواتف المحمولة وكأنه رجل قادم من مغاور التاريخ، من منطقة سابقة لسلطة الدولة والعائلة والملكية الخاصة، بدا وكأنه المشاعية البدائية وهي تهتف في شوارع القرن الحادي والعشرين، بدا أقرب إلى أبطال الثورة الفرنسية الأولى أو ثورة سبارتكوس.
ليس هذا ما قرأته كاراميلا وهي تُحمّلق في الشاشة واقفة، مسنِدة صدرها إلى كتف حفيدها سيف.. كانت هذه قراءة البنت الهندية التي تواطأت مع رحيم على ما مفاده:
ــ أنا سأعيدك لتكون الآغا الأحمر، وأنت تستمر معنا في التظاهرات!
همس رحيم: والبنات؟!

البنات.. نعم، هن الشبح الذي جثا فوق رأس كاراميلا وقلبها، فكاراميلا تعرف أنه يتكاثر كما البارامسيوم بالانشطار الذاتي إن شاء، وتعلم أنه يجدد الجنس في حياته كما تجدد خلايا البارامسيوم نفسها بفعلها الذاتي، وها هي ذي كاراميلا زوجة مؤجلة على وشك الانهيار في هذه اللحظة.. كانت تعلم أنه بيضة تربخ على نفسها فتفقس ديكاً.
برجاء وتسوّل قالت لحفيدها سيف: بالله عليك.. أعده إلينا قبل أن يقتلوه!
إقبال كاراميلا على وظيفة الخائفة على حياة رحيم، تعمّق منذ وصول حفيدهما سيف، أما الغرض من خوفها على حياة رحيم فيمكن تفسيره في هذه اللحظة، لا خوفاً على حياته، بل خوفاً مما سيحدث بعد موته، وقد تنازلت تواً عن فكرة خلود زوجها.
كانت كاراميلا على ثقة بأنه إذا ما مات ودفن، فلا بدَّ أنه سيحدث فوضى في المقابر، فوضى تهدد الأحياء الذين يعيشون حولها، هو وعدها بذلك حين كانت موجات شك تزحف إليه مزيحة بطريقها يقين خلوده، فقد كرر على مسامعها مرات ومرات أنه إذا ما مات، واتخذ مكانه في مقابر العاصمة التي تمثل مدناً يشترك فيها كل ثمار جلاء العائلات عن أريافها وفي أحيان أخرى أعراق غريبة، إذا ما مات ودفن في هذه المقابر فما لا شك فيه أنه سيحدث ما يسمى: انتفاضات القبور.
اجتمع أكثر من سبب لإصابة كاراميلا بالقلق هذا المساء، وبدت نشرات الأخبار وكأنما لم تعثر على نجم بمثابة رحيم. كل الشاشات نقلت لقطات لرحيم وهو يهتف، وهو يتسلق أكتاف الشباب، وهو يلقي بحركاته الضاحكة بما وسّع من مساحة الأزقة وجعلها أقرب إلى العرض المسرحي.
فظيع هذا الرجل، كان وهو يهتف، يحرّك رموشه الطويلة، ويغمض عينيه نصف إغماضة، وكان يرقص فوق أكتاف حامليه من الشباب مستعيداً تلك الأيام من ماضيه الراقص، منهمكاً بضحكات الصبايا، وجنونهن ورقصهن، وكان يود لو يخلّد هذه اللحظة مدفوعاً بعواطف شكسبيرية تماماً، لكن البنت الهندية رفعت عينيها صوب رحيم لتقول له: أنا أحبك يا صغيري!
ليلة رحيم هذه اجتاحت متابعي نشرات الأخبار المتوترين أمام تدفق قصص الموت والقتل، وليلته هذه جعلته نجماً بلا منازع لتظاهرات سيكون من عناصر تأثيرها خلق النجوم، ومن لحظتها بات رحيم واحداً من أكثر المطلوبين لبرامج التوك شو.
قالت له البنت الهندية:
ــ لا.. لن تظهر في مثل تلك البرامج، عليك أن تبقى لغزاً.. سؤالاً.. حين تصبح إجابة ستموت.. وحده السؤال يعني الحياة وعليك أن لا تتحول إلى إجابة.. الثورة تحتاجك سؤالاً!
سألها رحيم:
ــ من أين لك كل هذه الأفكار.. هل يعلّمونكم في الجامعات فلسفة إدارة المجاميع البشرية؟
البنت الهندية هذه، تكتّمت على حقيقة أنها درست الكثير من البحوث المتصلة بإدارة مجاميع الناس، بصياغة الأمزجة والغرائز، وكانت قد التحقت بالكثير من ورشات العمل التي تعنى بهذا النوع من العلوم ومعظمها كان في الأردن، وكذلك في بيروت، وكانت تتقن أكثر من لغتها العربية، كانت تتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية، وكانت انتظمت في دراسة القانون بجامعة دمشق، واتبعت دورة لبرنامج الزائر الدولي في الولايات المتحدة الأمريكية.

***

حين رجع رحيم إلى عزلته وبلاط الشقة ينزاح تحت قدميه، استعاد صوت البنت الهندية: ثورة ــ سؤال ــ تموت، ثم: عن أية ثورة يتحدثون؟ دعوني أستكمل مشواري في تجديد نسلي وفي لمّ شمل العائلة!
قال رحيم ذلك لنفسه، ثم عاد شجرة يابسة، بكى وغفا منهكاً بعد يوم من التظاهرات والأسئلة التي

أضاعت إجاباتها في زحمة الإجابات.
وحدها المقابر حضرت إلى نومه، رخام المقابر المسيحية في باب شرقي.. ما الذي يمنحه الرخام للموتى؟ قال لنفسه، ثم: الرخام في حال كهذا احتفالاً بالأحياء، الرخام ليس أكثر من سجنٍ تمارسه الثروة على الأموات، سجن من الصعب تكسيره واختراقه إذا ما شاء الميت أن ينهض عائداً من القبر إلى الرصيف.. المال هو القبر.. نعم سيكتم رخام القبر أنفاسي!
ومقابر المسلمين؟ هي الأخرى محاطة بالجلادين، ثمة شيخ يتلو عليك تعليمات فائضة، رجل يملي عليك ضرورة الاعتذار من ذنوب هي: الخطيئة التي تعطي للحياة معناها.. وسيشتم الشيخ الخطيئة.. سيبصق من فمه المليء ببقايا طعام الأمس خطاياي.. في مقابر المسلمين سينزعون المعنى عني، ثم فضيلته، ابن العاهرة، سيطلب مني أن أعتذر عن جوهر حياتي، عن الخطأ الصغير والأخطاء الكبرى.لن أموت!
قال رحيم كل ذلك لنفسه، ثم مضى إلى نوم قلق.. نوم هو في شكل من أشكاله يعني الموت، ولكنه قبل أن يغفو كرّر:
ــ الهندوس يحرقونك بخطيئتك ومن دونها.. يحرقونك بالجملة.. بعد الحريق تصبح السيد رماد.. أريد موتاً هندوسياً يحرم الديدان من أن تلتهمني!

البنت الهندية.. سان رحيم

اليوم فاضت الحياة، غير أن الموت فاض كذلك، وبات للموت حناجر تعلو، ورجال وجنود، وجميع محتفلي الموت، كانوا يرسمون دوائر من الأفكار، تهيّئ كل شيء من أجله، وتهيّئه لهم، وبات حب الموت لعبة صبيانية، تذكّر بحب العصافير والدببة والحشرات والذئاب، وبات من الصعب تصور أي شيء خارج ربيع الغابة، ونغمات الغرائز، دون نسيان الرياء والتناقض وقد تدخلا بشؤون الموت كذلك.
وكان اللافت، أن كثرت الكتابات الاستعراضية على صفحات الفيس بوك، كتابات تنحو نحو استعراض مهارات أدبية، معظمها يبجّل الموت، وكتابات تركّز على الوقائع والانطباعات والسير اليومية لأصحابها، كذلك كثرت التعليقات والتعليقات المضادة، وبدا المتخاصمون على اختلاف ألوان ريشهم، يرقصون احتفالاً بما يجمعهم، وهو الموت.
ومما لا شك فيه أن الشابات والشبان وبعض الكهول الذين كانوا على هامش الحياة في الظروف العادية، باتوا أكثر شغفاً باحتلال حيطان الفيس بوك، ومع كل الملاحظات التي يمكن تسجيلها، يمكن القول بأن البلاد باتت تنبض بحياة أخرى، وبموت آخر، فمن بين ركام العالم الافتراضي، ثمة أصوات سخيّة بالحس العملي وبالرؤى، وهؤلاء كانوا ممن يبحثون عن قبورهم في حدائق بيوتهم لا في مقابر المدن التي تجمع المتقاتلين في أسفل خزانة واحدة.
صفحات الفيس بوك، لم تختلف كثيراً عن جدران العشوائيات المحيطة بالمدن، تسميتها مطابقة إلى حد بعيد مع جدران هذه الأحياء (حيطان).
بدت حيطان الفيس بوك تماماً كما حال النزوحات البشرية نحو أمكنة جديدة، هي ناتج انفكاك الحياة السياسية التقليدية، كما انفكاك مجرى الحياة الاجتماعية، غير أن التماثل بدا صيغة توحّد أنصار الثورة، كما بدا التماثل على صفحات أنصار السلطة، ما جعل المثلية هي السمة الضاغطة والعامة للبشر السوريين.. بات الواحد منسوخاً عن الآخر.
ــ هناك مثلية جنسية، وهناك مثلية فيس بوكية! على حد تعبير أحد ناشطي الفيس بوك.
بات هذا حال العالم الجديد بالنسبة إلى السوريين، وقد أدركوا حق التمرد على الطغيان القديم، ولم يكن هذا حال السوريين الذين انشغلوا بالجنس وبنات البورنو والصور الفاضحة التي تسوّق ابتكارات فردية ليس بوسع الأنفاس الساخنة إتاحة الفرصة لنافثيها أن يكونوا مستنسخين.
على جدار البنت الهندية كانت صورة رحيم بدل صورتها، ولأول مرة يستظهر رحيم اسم البنت: يسار مظفر.
ــ ابنة من أنت؟ سألها رحيم وكان يجلس إلى جانبها متكوِّما بقميصه الفضفاض ومعطفه الفضفاض، كاشفاً عن عنقه المرسوم بتفاحة آدم وخطوط الشرايين والأوردة.
حين قالت له إنها ابنة مظفر هلال، ارتطم قلبه بماض لم يكن قد ابتعد، مظفر هلال كان واحداً من نشطاء الحركة النقابية السورية، مات بعد أن أثقلته الأحاديث التي تبّللها القيم والاعتقادات المتماثلة، قيم نمت الطحالب فوقها كما نمت فوق جدران الحزب الشيوعي السوري، الذي أطلق صحيفته «صوت الشعب»، لتكون صحيفة جلّ ما يمكن أن تقدمه من خدمة لقرائها، التذكير ببروفايل القائد التاريخي لهذا الحزب الشيوعي العتيق خالد بكداش.
لم ينطق رحيم ولا بكلمة تعليقاً على إجابة يسار عن سؤاله، ولكن حنيناً عميقاً دفعه لاحتضان البنت والربت على كتفها.
ــ كان صديقي..

ـ أعرف!
ـ مِنْ مَنْ؟
ـ مِنْ والدتي، ثم همست ضاحكة: يا عجوز، كنت تغازل أمي!
ـ هي قالت لك؟
ـ وقالت لي إنها لم تُعرك اهتماماً.
ـ لو لم تعرني اهتماماً لما تنبهت أنني كنت أغازلها.
ـ ولكنها زوجة صديقك!
ـ وما المانع؟ مع ذلك لم تكن لتستجيب لمغازلتي؟
ـ أتعرف لماذا لم تستجب لمغازلتك؟
ـ أظن.. لأنها كانت تنجب بناتاً، واللواتي يستجبن لي هنّ النساء اللواتي ينجبن ذكوراً.
بدت يسار سعيدة كما لو أنها كتبت قصيدة لأول مرة، فقد علقت روحها بمعطف العجوز الفاسد هذا، كانت روحها جاهزة للانطلاق معه حيثما اتجه، وكان قد التقط رسالتها وهو يتقدم نحو مواقعها في ثورة الشباب التي لم يكن ليعلم شيئاً عنها، كان يموج بمعطفه حاضناً البنت تحت معطفه.
ـ سان رحيم..
قدمته يسار إلى رفاقها من شباب الجامعة، وكلمة (سان) التي تعني قديس، تقبّلها رحيم بالكثير من الانشراح، بالرغم من أبعادها اللاهوتية، وبالرغم من تضادها مع شخصيته اللاهية العابثة التي لا تتقاطع مع أي من ميزات القديسين.
ـ إنني العشبة الضارة! هكذا كان يهمس، وكانت يسار تكرر اسمه الجديد: سان رحيم.
سان رحيم وقد بات هذا لقبه وحجز جداراً على الفيس بوك، نشط في صفحته التفاعلية بمساعدة من يسار، وهي من درّبته على العلميات المبسطة للإنترنت.
انتشرت صفحة سان رحيم أيّما انتشار ما بين صفوف الشباب، وباتت تحتل مكاناً مرموقاً بين مجموعة من الصفحات الأخرى التي تحمل أسماء الثورة أو تشير إلى الثورة أو على التضاد مع الثورة، وتحوّلت شقته الفارغة التي صودر أثاثها بسبب طاعون الدجاج، إلى شقة مسكونة بالحركة والشباب الداخلين الخارجين العابثين بالدرج الرخامي والأبواب التي تحمل لوحات نحاسية متآكلة بفعل الزمن.
ـ سان رحيم!! نادته يسار وكان نصف نائم.
فتح رحيم عينيه متسائلاً: ما الذي تريده يسار؟! رآها تنحني نحو قدميه لتلبسه خفه، وقد أمسكت بيده عازمة على إنهاضه من مقعده وأخذه لفراشه الأرضي.
قال لها: لن أنام الآن!
فتح رحيم عينيه من جديد وبدا يقظاً وكأنه يمانع النوم، قالت له: بات الوقت متأخراً وعليك أن تنام!
في إشارة من يده بدا رحيم مستنكراً لما تقوله، وحين تساءلت عن سرّ استنكاره أجابها: ما الذي يجعلك تقولين لي (عليكَ) هذه؟
بعد أن سيطرت على الخجل وقد ظهرت علامات احمرار فوق وجهها، سألته: وماذا في (عليك) هذه؟
ـ يجب، ينبغي، عليك، يلزم.. كلها أفعال وأوامر، وعليك ألا تتلفظي بها أمامي.
ابتسمت يسار من مفارقته اللغوية وقد سمعت منه الكلمة ذاتها (عليك)، ثم تساءلت:
ـ سان رحيم ما الذي جعلك تناصر ثورتنا؟
ـ أنا؟
ـ نعم أنت!
ـ أنا لا أناصر ثورتكم.. أنا أتسلى!
اعتراف رحيم هذا جاء أشبه بصدمة ليسار، الأمر الذي أدركه رحيم، فوجد نفسه مرغماً على التبرير:

ــ الثورة فعل استمتاع، أغبياء أولئك الذين يعطونها معاني أخرى ويلبسونها أثواباً أخرى، هي جمع لأمرين، لـ (فعل) أي انشغال، ومتعة.. تصوري لو كان الثوار مشغولين؟ ألا تلاحظين أن وقود الثورات منذ الأزل هم من الشباب العاطلين عن العمل ومن السئمين؟
ــ وأنت أي منهما؟ من العاطلين عن العمل أم من السئمين؟
ــ لست أياً من هذين.. أنا أبحث عن أولادي وأحفادي لألمّ شمل العائلة!
خفّت يسار مسرعة خارج شقة رحيم، أربكتها الاستخلاصات التي يقدمها سان رحيم، استخلاصاته بدت صادمة لما راكمته من مفاهيم عن الثورة، وهي من جيل لم يتسنّ له ما يكفي من الوقت للاطلاع على تاريخ الثورات السابقة، ولا على مجموع ما أنتجته الثورات الراهنة بدءاً من أوكرانيا.. ثورات كالثورة الفرنسية أو ثورة أوكتوبر أو ثورة سبارتاكوس أو حتى ثورة الطلبة الفرنسيين 1968.. لم يتسنَّ لها ذلك، وليس من الضروري ولا المفيد أن تكون هذه المعرفة جزءاً من حقلها العلمي والمعرفي.
سان رحيم يدرك ويبرر ليسار مثل هذه الهنات الصغرى في تاريخ الأفراد والمجاميع البشرية، وبسبب هذا الإدراك كان قادراً على الإقرار بأن لما يحصل مشروعية عظيمة تستند إلى ما يقدمه من متع ضرورية لأجيال أقفلت أمامها منافذ المتعة منذ خمسة عقود خلت، ومنذ أن سيطرت على البلاد عقائد احتكرت المتعة في نصوصها، كما احتكرت السلاح والفساد لاحقاً.. إذن لم انزعجت يسار؟ قال رحيم لنفسه وبدا النوم بعيداً عن عينيه.
بلاطات شقته التي تتحرك تحت قدميه، باتت ملاذاً يخرجه من سأمه عبر إزاحتها وإعادة إزاحتها، ثم إعادة ترتيبها فوق الإسمنت المتآكل، بدت البلاطات وكأنها اللعبة التي ستنجيه من حس الغربة التي يعيشها هذه اللحظة، ومن الإحساس بالعراء فيما لو تركته البنت يسار التي ظن أنها هندية حين التقاها أول مرة، ثم عرف أنها ابنة لامرأة سبق أن غازلها.
ــ يا إلهي على هؤلاء الشباب، يحلون العقائد مكان العقائد، السلطة مكان السلطة!! قال لها رحيم مستفزاً ثورتها.
أوشك مزار نبوءة يسار أن يتهدم، ولكنها، في لحظة صمت على ناصية الشارع التي ستعيدها إلى بيته، أدركت أن فيما يقوله سان رحيم شيء يبعث على السؤال المقلق، كان عليها أن تعود إليه ثانية، بعد أن هدأ بركان غضبها من هجائه لثورة الشباب، لم تنتبه لنفسها إلا وهي تطرق باب رحيم طرقات متتالية موقّعة.
فتح رحيم الباب، كانت يسار أمامه في هذه اللحظة، أشعت عيناه، وأشعت ذاكرته وأشعّ قلبه.. قال لها: ادخلي!
لا تعتقد يسار منذ أن ابتكر الله النوع البشري، أن ثمة رجلاً مصاغاً على هذا النحو من الهبل والحكمة.. قالت له: رحيم.. أيُّ نوع من الفتنة أنت؟
ــ فتنة؟!
ــ نعم فتنة، ليس ثمة امرأة إلا وتفتتن بك، ما الذي جعل أمي تقاوم فتنتك؟!
ــ لا شيء أبداً.. كل ما في الأمر هو ما قلته لك سابقاً.. لو افتتنتْ بي لأنجبتك، وأنا لا أنجب إلا ذكوراً.
عانقته يسار كما لو أن عناقهما سيستمر إلى أبدهما، ثم طلبت منه برجاء: رحيم.. سأنام معك!
أحاط رأسه بيديه، وأحس بهشاشة هذا الشيء الذي يمسكه، خاف أن يفلته في غمرة مفاجأة بدت أكثر استعجالاً مما توقع، فعاد وحمل رأسه برفق إلى الوسادة، إلى حريرها الداكن، ونظر طويلاً إلى البنت الهندية وهو صامت مغمض العينين، وكان من عادته أن يرى على هذا النحو: يغمض عينيه ليرى!
لقد أسلمت نفسها من أجله، ودون ريب، كانت ترى غير ما يرى، فتباشير الموت كانت تظهر على كل قسماته وتقاطيعه، مع أنه كان يتنفس بانتظام، وكانت شفتاها قد تبللتا، وكلما تلمّست قناعه بقبلة، أنّ بفائض إحساس من شهوة بدت ذروة، وكان على دراية بما لم يبح به من قبل، وما لم يبح به، هو حقيقة

يمكن اختزالها بالقول، إنه تحسس قبلتها وشفتيها وقد اختفت منهما مئات الشقوق الصغيرة التي تبللها الرغبة، بدا أنه يحبس أنفاسه مثل سبّاح يتدبر طريقه الطويلة تحت الماء، وشعر بسبب ذلك بخدر غريب بعد اكتشافه امتلاك العالم الذي لا يحمل بعده سوى العدم.

– 15 –

الرصاص يقلق نوم وادي الرف

استلقت كاراميلا هامدة ويدها فوق صدرها، كانت عازمة على التخلص من رائحته وذكراه معاً، غير أنها كانت خائفة من أصوات الدجاج المرتعب الذي يأتي من قن الدجاج كاسراً صمت ليل الوادي، ما ينبئ بأن ثمة حيواناً يقرع باب القن.
أبعدت يدها عن صدرها وحاولت أن تنهض.. تثاقل جسدها تلك اللحظة على غير عادتها، غير أنها أزاحت ثقله بعد سماع خمس طلقات متتالية. بحرص وحذر أسندت ظهرها إلى الحائط وأطلت عبر نافذة غرفتها إلى الخارج، رأت سيف واقفاً والبندقية ما زالت في يده.
حين اتجهت إليه خارجة من غرفتها قال لها: ثمة نمس سطا على دجاجاتك يا جدتي!
ــ وهل قتلته؟
ــ لا.. يظهر أنني أصبت الدجاجات ونجا النمس.
بعد أن تأملت حفيدها والبندقية ما زالت تتكئ على ساعده همست لنفسها: جدّه بالتمام والكمال.. يسدّد إلى النمس فيصطاد الدجاج!
تقدمت كاراميلا من قن الدجاج وسحبت دجاجة، اثنتين، ثلاث دجاجات ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة ما زالت ترفرف بأجنحتها في احتفال الموت.
ــ عظيم.. يبدو أنك أوقعت جدك في الكارثة الثانية من حياته.. في الأولى أفسد البيض وباع أثاث منزلنا في المدينة وأفلس، وفي الثانية ستودي بنا إلى مجاعة بعد أن أمتّ دجاجاتنا.
قالت الجدة ذلك وبدت وكأنها فرحة.. فرحاً لا يسعها التستر عليه ولا كتمانه، كانت حريصة على التكتم، ولكن لماذا؟
ــ إنها لحظة الفرح فلنطلق الفرحة يا بني، فلنطلقها ونزغرد.. زغرد يا سيف! قالت الجدة، ثم أطلقت زغرودة طويلة أرجع وادي الرف صداها لمرات ومرات.
ــ ما الذي أفرحك يا جدتي؟ سأل سيف.
ــ دجاجاته.. موت دجاجاته ونجاة النمس، يا ولدي!
ــ ماذا تقولين؟
ــ أقول ما قلت.. أظن أنك سمعتني.
انتزعت كاراميلا البندقية من يد سيف وتفحصت علبة ذخيرتها لتجدها خالية من الطلقات، بدت حزينة هذه اللحظة، أوشكت أن تبكي وهو ما تبدّى من تقطع أنفاسها، التفتت إلى حفيدها متسائلة:
ــ من أين اهتديت إلى سلة الطلقات حتى حشوتها؟ ثم لماذا لم تدع ولا طلقة واحدة لي؟
ــ ماذا يا جدتي؟
ــ طلقة واحدة كي أحتفل!
بيوت الوادي وقد أضيئت بيتاً بعد بيت، أعلنت استنفاراً تلك الليلة، فإطلاق النار في هذا الليل كان غريباً عن تقاليد أهالي الوادي الذين امتنعوا عن صيد الخنزير منذ سنين.
كانت الجدة قد أوصدت باب غرفتها وإلى جانبها حفيدها.. قالت لحفيدها: لي رغبة بأن أنجب ولداً من جدك!
من الواضح أن الحفيد بات قادراً على التقاط التفاصيل الروحية للحظة الجدة هذه، وكان كما ضارب إيقاع نبيه يعرف متطلبات أجساد الراقصين، وهو يختبر غضب الجسد وتأرجحاته ولحظة صعوده إلى الأعلى فالأعلى. توجّه الحفيد إلى الغرامافون واختار أسطوانة قديمة تعود لممتلكات الجد منذ خمسينيات

القرن العشرين، وهي أسطوانة لفرقة جاز أمريكية، ولنجمها المغني الأسود الضرير راي تشارلز، وشغّل الغرامافون.
أمسك الحفيد يد جدته وبدأ يراقصها كما لو كانا عشيقين، وكان جسدها يستجيب لنداءات الموسيقا، لتتأرجح وكأنها استعادت ما فقدته طيلة حياتها في تلك الليلة، وحين أنهكت من الرقص، توقفت لاهثة مسندة كامل جسدها على جسد حفيدها لتقول له:
ــ طز بجدك! عاد أم لم يعد ليس مهماً بالنسبة لي.. ها أنذا أرقص برشاقة وخفة واستمتاع دون حضوره الكريم!
ــ إنها الموسيقا يا جدتي.. إنها فعل سلام.. تصالح مع النفس!
تأملت الجدة كلام سيف، ولكنها تساءلت وكأنما تستعيد بعينيها شبه المغمضتين ذاكرة بصرية مختبئة:
ــ سيف، قل لي.. لماذا يضرب ضاربو الطبل بالعصي جلود طبولهم وكأنهم يمارسون الحرب؟!
فكّكت جملة الجدة هذه كل ما تعلمه سيف من أن الموسيقا فعل سلام، جمدت عيناه في محجريهما إثر الاستخلاص الخطير للجدة، فقرر بعد هذه الجملة على وجه التحديد أن لا يعود للانتظام في الجامعة لهذا العام، جملة الجدة هذه وتساؤلاتها الساذجة فتحت أمامه بوابة هائلة من التساؤلات. الموسيقا فعل عنف.. نعم هي كذلك! قال لنفسه. ثم: من هو الغبي الذي يعتقد أنها فعل سلام؟ إن عازف البيانو يقطّع أوتار آلته وهو يعزف.. عازف الترومبيت يبث عنف روحه وهو ينفخ في النحاس وكأنه سيحبّل النحاس بأنفاسه.. أي فعل سلام هذا؟!
تساؤلات الحفيد التي استمرت حتى فجر هذا اليوم، تقاطعت مع تساؤلات الجد وقد عاد بذاكرته إلى بدايات الثورة، وإلى مرحلة ما قبل الاحتكام إلى السلاح من قبل السلطة والمعارضة، وقد كان برفقة يسار التي ظهرت أمام بوابة جامع الحسن ظهيرة ذاك اليوم وحين كانت إلى جانبه تهتف: سِلميّة.. سِلميّة!
حين كانت تفعل ذلك، كان يعرف عبر حكمته أنها ستقود خصومها حال انتصارها إلى السجون وربما المشانق، وربما إلى سلسلة لا تنتهي من عمليات الثأر.. أيّة سلمية هذه؟ تساءل سان رحيم، ثم دلف إلى زاوية بعيداً عن المتظاهرين فيما تصاعد الدخان المنبعث من القنابل المسيلة للدموع.
كانت الذخائر التي يطلقها الجنود على المتظاهرين ذخائر فاسدة، وكانت حالات الإغماء التي تصيب المتظاهرين تفوق الحالات التي يمكن أن تتسبب بها القنابل المسيلة للدموع فيما لو لم تكن فاسدة.
حين أخذ يرقب يسار من البعيد، كانت تندفع نحو شرطة مكافحة الشغب ما يعني أنها كانت تندفع نحو الموت.
سأل نفسه: ما الذي يحدث؟ ثم قال لنفسه: إنها التسلية! وتابع: أية تسلية هذه التي تأخذنا بقدمينا إلى الموت؟!
غرق رحيم في تأملاته فيما الشوارع غارقة بالمتظاهرين والدماء، وكان يتابع تأملاته بحثاً عن أنوف لشباب تشبه أنفه، كذلك عن تفاحات آدم في أعناق الشباب، وثابر رحيم على البحث عن أبنائه وأحفاده من بين المتظاهرين.. عن طالب طب الأسنان الذي لم يره منذ أن التقاه مرة واحدة، قطعا خلالها مسافة طويلة ما بين وادي الرف ودمشق، وهي رحلة صاحبتها حالة من السلس البولي الشديد للأب المجهول رحيم.
ضجيج التظاهرات والحشود الكبيرة التي تكوّمت أمام جامع الحسن في منطقة الميدان الدمشقية بعثت الضجر في رحيم، فقرر الانسحاب الهادئ من المكان بحثاً عن أمكنة أقل ضجيجاً وتوتراً، كان يعلم أنه استنفد متعة التظاهر هذه، وكان يعلم أيضاً أنه لن يلتقي بأي من أبنائه أو أحفاده وسط هذه الحشود.
في طريقه إلى مقهى الكمال الصيفي، نظر رحيم إلى ساعة معصمه، ساعة متآكلة من الداخل، لونها الأصفر المائل إلى البني بات متآكلاً.. جلدتها الحاملة متآكلة أيضاً وهي تشد على أوردة رحيم وقد بات

لونها أكثر اخضراراً مما كان.
سؤال الموت بدا السؤال الشاغل في تلك المسافة، الموت بما يعنيه من إعدام للحياة. إذن لماذا يذهب هؤلاء الفتية إلى موتهم؟
في مقهى الكمال الصيفي مجموعة من متعلقات التاريخ: ضباط متقاعدون، محامون متقاعدون، مفكرون لم ينشغلوا بسؤال واحد يستدعي التفكير، أساتذة جامعات يلعبون النرد، صحافيون بائسون يتقاضون الحدود الدنيا للأجور، وكذلك قوّادون مختبئون وراء نظارات طبية تخفي عدساتها بريق أعينهم.
خارج المقهى ملصقات تنعي راحلين عن الدنيا، موتى العائلات المبجّلة الذين يأخذون تقاليد عائلاتهم معهم إلى مقابرهم، وكانت دمشق في هذا اليوم أشبه بقيامة مختبئة وراء منعطفات الأزقة وشارات المرور.
ــ كس أختي.. قال رحيم، ثم أردف: لا.. كس أخواتهم!
لم يتسنّ لرحيم أن يتعرف على معنى واحد للخوف الذي يعيشه في هذه اللحظة وكأنه في مواجهة الموت، ولم يعرف على وجه الدقة ما الذي يعنيه موته الآن، هنا على هذه الناصية وبين هؤلاء البشر المتثائبين. كل ما كان يعنيه هذه اللحظة أنه سيقاوم موته، وسيستدرج التسلية مع مقاومته للموت، سيفعل أي شيء من أجل أن يستمر مكبلاً بقيود الحياة، لن يرمي قيده من يده ولن يتقبل أن يجنّزه معزون ضاحكون يدلقون نكاتهم مع لهاثهم وهم يخطبون مشيدين بمناقب الفقيد.
ما الذي يمكن أن يفعله سان رحيم لمقاومة كل ما يحدث؟
جلس إلى طاولة في مقهى الكمال، كان عليه أن يتقبّل في هذه اللحظة مفردة (عليه).. كان عليه أن يكتب وصية صغيرة يوجهها إلى حفيده، كتب شيئاً منها ثم مزقها ورماها فوق صواني الشاي المصطفة بانتظام في صدر المقهى.. كتب:
«عزيزي سيف.. الحياة بنت» ثم شخبرات، ثم: «عزيزي سيف.. حين يسألونك من أنت؟ لا تنسَ أن تقول لهم سان رحيم جدي.. أنا جدك يا سيف».
لا يعرف رحيم حتى اللحظة، ما هي طبيعة انتمائه لحفيده سيف، أهو حفظ النوع؟ أهو الوعد؟ أهي عزلة الروح وشتاتها؟ أهو الانغماس في الأبدية المستحيلة وقد توهم أن عقده مع الله عقدٌ جديٌ ليدرك في لحظات النوم أنه عقد مصحوب باختلال الإرادات، بما يشي أنه أرغم الله على القبول بهذا العقد؟
ربما ينتمي سيف إلى كل هذه الأسئلة، وربما لا ينتمي إلى أي منها، غير أن الثابت أن رحيم لم يكن لينتمي سوى لسيف.
كل النساء اللواتي عرفهن، لم يستطعن أن يمنحنه سبباً واحداً لتمجيد حياته، وبضمنهن آنجيلا وقد حاول أن يرسم لها جناحين من قش، جناحين يمنحانها لعنة الحرية بما يجعلها سيدة الحلم.
بكى رحيم حين مزّق قصاصاته، وبدا كمن يُمزّق قلبه، ولكنه يعرف أن في الطرف الآخر من المدينة بنت اسمها يسار ستأتيه حالاً باحثة عنه، وحدث تماماً ما توقعه.
ــ أعرف أنك هنا!! قالت يسار، وتابعت ممازحة: حسنٌ أنك غادرت التظاهرات.. يمكننا أن نتظاهر معاً وبمفردنا.. لا نريد متظاهرين شركاء لنا.. يكفينا أنا وأنت، تعال نتظاهر ونهتف ونسقط كل الأنظمة بما فيها نظام الثورة المقبل.. كل الأنظمة.. كلها كلها.. تعال نستولِ على النظام ثم نسقط نظامنا، ونهتف: الشعب يريد إسقاط النظام!
قالت يسار ذلك وانتحبت باكية على غير ما يمكن توقعه، ثم انتحت جانباً وجلست فوق البلاط ضامة ركبتيها إلى صدرها، نظر رحيم إليها بشفقة وإعياء.. قالت له:
ــ رحيم أرجوك لا تمت الآن.. إذا استطعت أجّل موتك قليلاً.. إذا تمكنت من العيش وقتاً إضافياً افعل ذلك من أجلي!! إذا لم يكن ذلك ممكناً، حدّد موعداً لاحقاً مع الموت!
وعدها رحيم بأنه سيؤجل موته، قال لها إن وقته يتسع لبعض العيش.

ــ نعم من أجلك أنت.. ربما أطيل المكوث حتى تملي مني أو أمل منك!
ــ تعال لا نملّ!
ــ ما الذي سنفعله إذن؟
ــ نلعب!
ــ بماذا؟
ــ بنا.. بالموت!
ــ كيف؟
ــ أُميتك ثم أُحييك.
ــ كيف؟
ــ بالحياة الافتراضية، أعني على الفيس بوك!

– 16 –

فيس بوك

استعادت يسار نشاطها على الفيس بوك، وكان عدد الأصدقاء المثبّتين على جدارها يتجاوز الخمسة آلاف صديق، انتقت معظمهم ممن يميلون إلى الثرثرات السريعة والعواطف الصارخة المتصلة بالثورة وإسقاط النظام، وكانت أغلقت جدارها بوجه كل من يدّعي التعقل أو الرشد أو حتى يحمل رأساً ساخناً فقط، أعلنت ذلك صراحة وقد استعارت شعارها معكوساً من المسرحي الروسي ستنسلافسكي:
ــ لا أريد أصدقاء بقلوب ساخنة ورأس بارد.. أريدهم بقلب ساخن ورأس ساخن!
في الليلة ذاتها كتبت منذّدة بمقتل «سان رحيم» واصفة إياه بالقائد الميداني ومنظم التظاهرات ومبتكر أدواتها، وبالغت في وصف مقتله: «خمسة عشر مخزن كلاشينكوف اخترقت صدره وبقي واقفاً حتى أتاه من وضع مخزناً إضافياً ممزقاً جمجمته»، وتركت مع هذه النهاية الفجائعية: «أتعلمون ما الذي وجدوه في جمجمة رحيم؟ وجدوا أجمل القصائد والأناشيد».
كان الوطن في خطر، غير أن حشود الشباب المتحمس والمشبع بروح التغيير، كان يستعد للموت، ورحيم الذي لا يمكن اتهامه «بالتعاطف مع الثورة»، لم يسبق له رؤية مثل ذلك التوحد في العقيدة، كان عزاؤه أن يحثّ روحه على تقليب جملة استقرت في رأسه وهي جملة شهيرة لدانتون: «من أجل الانتصار لا بدَّ لنا من الجرأة، ودائماً المزيد من الجرأة، وهكذا ننجو»، غير أن الأيام اللاحقة من ثورة الشباب، لم تعد فرحة باذخة، مرحة، ومؤثرة كما ينبغي، وكما يحب الرجل العجوز أن تكون، فالاستحضارات الخيالية للموت، لم تعد على مساس بالخيال، ومشاهد الأطفال مقطعي الأوصال، باتت أشد واقعية مما يمكن لرجل تجاوز الثمانين أن يحتمل، صار الموت فانتازيا الحقيقة، ولا بدَّ أن نشرات الأخبار كانت تواظب على إخفاء الحقائق، أو على جرها إلى حيث لا يجوز استنكار تجاوزات أي من المتصارعين وقد باتا جيشين، بعد أن سيقت الثورة لإسقاط سلميتها، و«لكنها هكذا.. كل الثورات تفعل ذلك»، كان يقنع نفسه مستحضراً المقصلة، اختراع الدكتور الفرنسي غيّوتان فيدرك في حلم تنبُّئي، يطول الاستخدامات المشؤومة للثورة الفرنسية.
ــ أخاف عليك من خاتمة تراجيدية يا ابنتي!
قال ذلك ليسار، وقد أزال عنها خياله الخليع، وكان فيما مضى اعتبرها وعلى الدوام البنت الهندية، وقد انبعثت من جسدها عطور خيّل إليه أنه سيقطف زهر رمّانها.
سعل قليلاً مع مزيج من السذاجة والتعاظم، وهمس ورجله ممدّدة: أحب الشاي الثقيل.
ابتلع رحيم فنجان الشاي الثالث، وكانت يسار إلى جانبه، ثم أخذ يدها وسألها ببراءة: ألا تريدين أن تكوني ابنتي؟
ــ ولكنك تبحث عن أبناء ذكور لهم تفاحة آدم وأنف منكسر.
أجابته، وغادرت مقعدها باحثة عن المرآة، ولم تكف عن الضحك الباكي، وحين عادت خائبة قالت له: رحيم أنت لست وحيداً!
كانت منتشية بقصة حبّها، و«سيقول الناس إنك رجل فاتن»، قالت لرحيم، ثم انعطفت لتربط شال رقبتها فوق رقبته على شكل ربطة عنق.
ــ تغريني تفاحة رحيم.. كان على الناس أن ينسوا تفاحة آدم.
الارتعاشات، يا إلهي، نوبة أخرى، كان عاجزاً عن المثابرة في التطلع إلى عينيها الباكيتين، ارتمى على مقعده وتكوّم بين ذراعيها، وكانت الحمّى تخضّه خضًّا.
تساءلت بلطف: كيف سيكون حال رحيم لو كان له شارب؟

نظرت إليه، ما أعذب أهدابه!
في هذه الأثناء ماذا كان يقول رحيم؟
كان صوت الحنين قد ترافق مع ضمّة ذراعيها لجسده وقد حمته من السقوط الكبير، أما هو فأخذت راحتاه تستطلعان ظهرها العاري، وأخيراً داعب عقد صدرها وكان من الفضة النقيّة الخالصة، غير أن توقفه المفاجئ عن عناقها، كان بمثابة إعلان عن توقفه عن الاسترسال في ارتكاب آثام ظن ذات يوم أنها آثام جميلة، وها هو ذا يصعد للأعلى فالأعلى معتقداً أنه سيتعلم البكاء. لأول مرة في حياته يغتاله الموت، ويداهم مشاعره. قال لها:
ــ ما من حب أو كراهية أو متعة أو حكمة في القبر.
ــ أنت تقول ذلك؟
ــ لا.. إنه العهد القديم.
ربما، بل من المؤكد أن يسار لم تكن قد أدخلت رأسها الصغير إلى جمجمة رحيم لتتساءل عن كم الكلاسين النسائية وأولاد الزنى الذين دفعهم إلى هذا العالم من قناة في مخيلته، ولكن أحداثاً لاحقة شغلت يسار عن تساؤلاتها، وكانت بمجملها تفاصيل أسئلة تدور حول ملايين السنين القادمة التي سيعيشها رحيم.
ــ ستعيش ملايين السنين! قالت له.
وبعد أن لملمت نثارات فنجان الشاي الذي أوقعته أرضاً، أكدت له: ستكون لديك كل الفرص لتعيش كما تشاء، وستشتري لنفسك السلوك الذي تشاء، تاجر فاشل، لص، رومانسي حالم، وسيكون من بين نسائك كل أنواع الأمهات من المزيفات والخليلات، وكل ما عليك الآن أن تستسلم لي. ولا تقل يا ابنتي ثانية!
حين غفا، ركعت يسار إلى جانبه حتى بزوغ الفجر، وكانت تهدهد مناماته وتشمّ جسده وقد بدا عشباً مندّى في حرارة الليل الرطبة، لم يكن قد اغتسل أو حلق ذقنه، بيد أن النهار كان قد أضاءهما معاً، وكانت حكاية مقتل رحيم سرت بسرعة الإشاعة بين صفوف الشباب، تلقفتها معارضات الخارج بالكثير من الترحيب، فقد بات بزنس الدماء شاغلاً للجميع. السلطة تتمنى على المعارضة تصفية مناصري السلطة وجنودها لإغراق المعارضة في الوحل وتوفير المظلة للإيغال في المزيد من القتل، والمعارضات تزيد من أرقام ضحايا القصف المدفعي والجوي وتدفع السلطة إلى المزيد من الغرق في الوحل والدم. كان لتبادل الوحول والانغماس فيها سبباً موجباً توقع الكثيرون أن يودي بالبلاد برمتها نحو الهلاك والموت.
قرأ رحيم قصة موته، فأصيب بما يتجاوز الحزن.. للمرة الأولى تعرّف رحيم على المكانة الوطنية الراسخة التي وطّدته أيقونة في خيال الشباب المتظاهرين كما العائلات الصامتة القابعة وراء نشرات الأخبار.. ربما كان رحيم، للمرة الأولى من حياته أيضاً، قد غرق في الدموع، مرة واحدة بكى كما حاله اليوم، كان ذلك يوم موت أمه، بكاها لا لأنه أحبها، بكاها لأنه قرأ وهي مسجاة مجموعة من التراتيل المترجمة عن اللغة السنسكريتية التي ترسم للإنسان نهاية مهزلة، هي تماماً غير النهاية التي يتوق إليها أيٌّ من الكائنات الحية التي تتكاثر وتنجب وتفعل أفعال الحياة.
بكاء عبد الرحيم على سان رحيم أضاف إلى يسار ثقة راسخة بأنها أفلحت في إيصال رسالة موته، وزاد من ثقتها فيض الرسائل والتعليقات المتوعدة بإسقاط النظام. واحدة من الرسائل التي وصلت إلى جدار يسار على الفيس بوك، رسالة تقول: «لو لم يحرق بوعزيزي نفسه لأحرقت نفسي احتجاجاً على مقتل سان رحيم». وعقّب المرسل بسؤال فيه الكثير من الرجاء: «قولي لي.. هل لديك طريقة مبتكرة لموت يسجّل نفسه على الصفحة الذهبية من التاريخ؟».
استدارت يسار نحو رحيم وقد رفع رأسه من بين دموعه: ما رأيك؟ هل لديك طريقة مبتكرة تنقذ هذا

الشاب؟!
ــ تعودت أن أقدّم طرقاً مبتكرة للحياة، حكايات الموت لم أختبرها. سامحي قصور خيالي!
تجاوزت يسار رسالة صديقها هذا، ومضت تقلب جدارها، كانت قد ملأته بصور رحيم. ظهر رحيم في كل الصور كاشتقاق عن طير من الطيور الجارحة، لم تلتقط يسار ما هي حقيقة التشابه ما بين رحيم وبين ديك رحيم الملوّن المتوحش، ربما كان وجه الشبه على صلة بتفاحة آدم والعنق الطويل، وربما كان بسبب انفلات شعره وقد تبدّى على هيئة ريش، وربما لأنها شاءت أن تراه كذلك وكثيرون منا يرون الأشياء كما يرغبون.
بعد الضجيج الهائل الذي حدث إثر إعلان مقتل سان رحيم، ثمة ضجة مضافة أحدثتها يسار، ضجة تحكي فيها عن مسار الجنازة، جنازة سان رحيم: ستمر الجنازة من أمام جامع الحسن وتقطع حي الميدان كاملاً.. سنؤبنه جميعاً..
دعوتها للمشاركة بجنازة سان رحيم صيغت على هذا النحو، هكذا، ولاقت يسار الكثير من الاستجابات لدعوتها.
في اليوم التالي وكان يوم الجمعة، كان موعد دفن أحد المتظاهرين، وكانت ترتيبات الجنازة تأخذ المسار ذاته الذي حدّدته يسار لجنازة سان رحيم، كان على الجنازة أن تمر أمام الجامع باتجاه حي الميدان، كانت يسار ومجموعة كبيرة من رفاقها الشباب يمشون خلف الجنازة وثمة من رأى رحيم يمشي بينهم متكتماً على ما يرى، فيما جمهور كبير يحمل لافتات مكتوب عليها: لن نسامحهم بدمك سان رحيم!
سان رحيم كان يمشي وراء سان رحيم، كل الهتافات تشيد به، ببطولاته، بجيش الشباب الذي تربّى في مدرسة رحيم وحكمته. وكان حرّاس النظام يذخرون بنادقهم ويبتعدون بظهورهم عن المتظاهرين الهائجين، وكان رحيم يتأمل في وجوه الشباب، وهو يبحث عن أنف منكسر وتفاحة آدم ليعيد أبناءه ويلم شملهم، كثيرون كانوا يحملون التفاحة ذاتها والأنف ذاته، بعضهم من المتظاهرين وبعضهم من حرّاس النظام، والبعض الثالث من العابرين مصادفة في ميدان الموت.
أكثر ما أثار استغراب رحيم في جنازة سان رحيم، أن المقرئ الذي كان يتلو سورة الفاتحة، كان مقرئاً يحمل الأنف ذاته والتفاحة ذاتها اللذين يبحث عنهما رحيم، ما أدى إلى أن يدقّق بالشيخ المقرئ محاولاً رسم صورة لوالدة هذا الشيخ ممتلئاً ثقة بأنه لا بدَّ أن طوى ساقيها فوق كتفيه.
قال ليسار هامساً: تعالي ننخطف لألملم أولادي!
ــ من أين؟ من المتظاهرين أم من حراس النظام؟
ــ لا أدري المهم أن ألملم أولادي.
همست يسار وقد قطعت هتافاتها: عليك إنجاب أولاد جدد، صبيان بأنوف مكسورة وتفاحة آدم.
ــ لم يتبقّ لدي وقت.
ــ ما زال الوقت متسعاً.. أمامك ملايين السنين.
ــ ولكنهم كما ترين ذاهبون لدفني.
ــ هذا ليس أنت.. إنه سان رحيم!
ــ وأنا من أكون؟
ــ رجلٌ فاسد.. فاسد فحسب!
ــ ولكنني..
ــ ولكنك أجمل الرجال الأموات.
أمسكت به من ذراعه وأخرجته من صفوف المجنّزين، همست له: تعال نذهب إلى شقتك.. فوق انزياحات بلاطها سننجب أولادك!
ــ ولكنك ما زلت طفلة!

ــ حيواناتك بالغة الدقة والصغر!
ــ والأولاد؟
ــ اطمئن سيحملون أنفك بالتمام والكمال وكذلك تفاحتك!
ــ وكاراميلا؟
ــ من تعني بكاراميلا؟
ــ زوجتي.
ــ الآن تذكرتها؟
ــ لم أنسها أبداً!
ــ إذن لا تنسها، وهيا بنا ننجب أحفاداً لها!
كانت كاراميلا قد اهتدت إلى مخبأ خرطوش جفت رحيم، لتطلق سلة من الطلقات في سماء ذلك اليوم، وكانا هي وحفيدها يتسابقان أيّ منهما سيُسقط صحوناً طائرة أكثر.. حين تحطمت جميع صحون مطبخ كاراميلا، قالت لحفيدها:
ــ ما رأيك بأن نطلق ما تبقى من طلقاتنا على ما تبقى من حياة جدك رحيم؟... ثمة دجاجات ما زلن على قيد الحياة.. تعال نستكمل لعبة الرصاص بإصابة ما تبقى من دجاجات جدك! نطلق الرصاص على جمهوره باعتباره:
الممثل الشرعي والوحيد للدجاج.. هو كذلك يا جدتي، لا تصدّقه حتى ولو رسم لنفسه صورة ديك!

روايات نبيل الملحم

1. آخر أيام الرقص، روافد للثقافة والفنون ــ دمشق 2011.
2. سرير بقلاوة الحزين، أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي ــ بيروت 2012.
3. بانسيون مريم، أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي ــ بيروت 2012.
4. موت رحيم، أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي ــ بيروت 2013.
5. حانوت قمر، أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي ــ بيروت، تحت الطبع.

"الروايات كالنساء، لاتبدأ مثلما يريد أحدنا، وإنما مثلما تريد هي"...
بهذا الارتباك الموجود في مقولة "ماركيز" هذه... كتب نبيل الملحم هذه الرواية، بادئاً بتصوير شخصية كأنها آتية من كوكب آخر... وهي، في الوقت نفسه، شخصية أرضية معجونة بخلطة من السراب والينابيع.
هذه الرواية التي تبدأ بمغامرة في اكتشاف كل أنواع الزيف في الحياة المفترسة، لكن ثمة مكان آخر، من هذا الزيف، والمراوغة، والكذب، والانحرافات... ثمة روح الصواب وشكل جماله في النفس البشرية. هذه الرواية تتحدث عبر شخصياتها، عن عبء مرور الزمن، وعن أجيال ترث أجيالاً في الفكرة، والسلوك، والوقائع.
رواية تستمتع بجرأتها على اقتحام الأزمة السورية بما يشبه الهجوم من عدة أماكن: الثورة، كما يراها الكثيرون، الانتفاضة، الحراك، التمرد، الحرب، كما يراها الكاتب، وبطله الذي يتسلى، بعمق، بوجود أعضائه قيد الاستعمال.
رواية تغامر بأدوات فضيحتها، عندما تكشف حقيقة ثلاثة أجيال وثقافتها في سلوك الحياة، اليومية، وخاصة في الظلال الخفية لمأزق سوريا اليوم.
هذه الرواية لعوب، وشجاعة، وقذرة، وشريفة، ومليئة بثياب الفضيحة الممتعة، ولأول مرة لا تكون أصابع الكاتب غليظة في التدخل بتصنيع الشخصيات... إنه يتركها كقطيع من الحيوانات البرية، تسرح في أهوائها وفي خيارات المكان/ الحيّز الذي يصنع مصائرها، ثم يهتم حانياً بثغائها الأخير.
الروايات، من جهة أخرى، كالنساء... تستطيع أن تعرف، من متعة النظر إليهن، أن سحراً ما في إدامة النظر، قد أصابك، فتكمل المراودة... وهكذا، إمّا أن تذهب معك إلى الفراش، مجازاً أو حقيقة، وإمّا أن تتركها، بعد لمستين، ومئة كلمة، تتغبّر على الرف، في المكتبة.
المتعة... كلمة ليست قليلة الشأن.

عادل المحمود